ثمن النسخة الواحدة فرنكان واجرة البوسطة غرش صاغ

الوحش الوحش الوحش

او

سياحة في ارز لبنان

بقالب رواية فلسفية اجتماعية ادبية

﴿تأليف﴾

فرح انطون

منشىء مجلة (الجامعة)



﴿منظر شجرة الارز﴾

اكبر اشجار الارز مصغرة مئات مرات

الاسكندرية في ١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٣



ارز لبنان

﴿ منظر الارز من بعيد وفوقه الجبال وامامه السياح يقصدونه ﴾

حرش الارز ظاهر في الوسط



(هذان الرسمان منقولان عن صورتين فوتوغرافيتين مصورتين في العام الماضي)



الوحش الوحش الوحش

الفصل الأوّل

﴿ على طريق الجبل ﴾

طرق الارز · سفر سليم وكليم · الشاعر لافونتين والجد جد اللبناني · نادرة عن المكارين والسوقة فيع وقلحات وما يقوم بينهما من الخصام · نفس الحضري ونفس القروي · بعض اغاني لبنانية · نجمة الصباح رفيقة المكارين المحبوبة

أشهر الطرق من البحر الى (ارز لبنان) طريقان · واحدة عن طريق اهدن فبشري · او الحدث فحصرون فبشري ـ وهي من املم الارز · وواحدة عن طريق بعلبك من وراء الجبال الشامخة المحيطة بهذا الحرش · والطريق الاولى طريق الثغور من طرابلس حتى البترون · والطريق الثانية طريق السياح الذين يصعدون من بيروت الى بعلبك لمشاهدة آثارها ثم يعطفون منها الى الارز لمشاهدة آثاره الجميلة الطبيعية بعد مشاهدة آثار بعلبك الصناعية ·

ففي ليلة ٨ اغسطس من السنة التي نكتب تاريخ حوادثها هنا قرع مكاري في آخر الليل باب غرفة عالية كائنة في غربي قرية قلحات فوق طرابلس الشام وهو ينادي ياخواجه كليم ياخواجه كليم · فدوى صوته في القرية في صفاء ذلك الليل دوياً هرت له الكلاب التي كانت راقدة في الشارع قرب تلك الغرفة فساعد هريرها على تنبيه النائمين فيها · ولذلك لم يلبث ان فُتح الباب واطل منه الخواجه كليم وهو يفرك عينيه ويقول : هل ظهر نجم الصباح ياجرجس · فاجابه المكاري اظنه سيظهر بعد نصف ساعة على الكثير والارجح ان الشمس تشرق لنا عند بطرام · فقال كليم فلنعجل اذاً فاننا نروم الوصول الى الجبل قبل اضطرام وطيسها فراراً من الحر

وحينئذ التفت كليم لينبه رفيقاً له كان نائماً معه في الغرفة فوجده واقفاً وراءه · فقال

له هلمَّ نركب يا سليم فان مطيتينا حاضرتان ولنلبس ملابسنا اولاً

وبعد ثلث ساعة كان كليم وسليم على جوادين قويين سائرين في صفاء الليل تحت اشعة النجوم الضئيلة ولا انيس لهما غير المكاري يسير وراءهما وهو تارة يحدو فرسيه بكلام مشجع وتارة يزجرهما لانهما صدما حجرًا في طريقهما · ولم يكن يُسمع في ذلك الهدوء ما عدا وقع حوافر الجوادين وصوت المكاري سوى اصوات الحشرات الصغيرة التي تنتشر في لبنان على اشجار الزيتون والتوت وتنشد في الليل والنهار اناشيد متواصلة

ويظهر ان جفون كليم وسليم كانت لا تزال مثقلة بالنعاس لانهما كانا يتثاءبان من حين الى حين · فرغبة في طرد النعاس ابتدأ كليم قائلاً : اسمع ياصاح اصوات هذه الحشرات الصغيرة التي تهكم عليها لافونتين تهكمًا شديدًا (١) حقًا انه ظلمها بهذا التهكم ترى ما عساها كانت تجيبه لو درت بتهكمه

فتثاءب سليم وقال : لا ريب انها كانت تجيبه جوابًا جميلاً · فانها تقول له « ليس بالخبز وحده تحيي الكائنات الحية بل الحياة الحقيقية هي الحياة الروحية · وحياة الروح عند هذه الحشرات نشيدها المستمر الدال على انها في حالة الانبساط والراحة · ولو خُيرت في ايهما احب اليها · ففقدانها هذه الحياة الروحية التي هي فطرتها وطبيعتها ام فقدانها الخبز اليومي الذي هو حياتها البدنية فانها لا شك تختار فقدان هذه الحياة على تلك · وما الذنب في ذلك ذنبها لانها هكذا صُنعت وهكذا فُطرت · ومع ذلك فان لافونتين لم يقدر على قهرها بتهكمه في ذلك المثل الا لانه قاس معيشتها على معيشة البشر و بذلك جاءت حجته قوية · ولكنه لو امعن النظر لرأى ان هذا الحيوان الصغير لا يحتاج الى القوت بعد مرور ايام الحصاد حتى في اشد اوقات الشتاء · فان قطرة من قطرات المطر كافية لشربه · وورقة واحدة من اوراق الشجر كافية لايوائه وتدفئته · واقلّ حشرة صغيرة او دودة حقيرة كافية لتغذيته · ولو عقل هذا الحيوان لاجاب ذلك الشاعر : عندنا في الطبيعة ليس من حيوان ولا نبات يحتاج الى قوت ويبيت بلا غذاء · فان فظائع كهذه النظائع لا تحدث الا بين البشر في الاجتماع · نعم نحن

« ١ » La cigale et la fourmie (الجُدُجد والنملة) قصة الجدجد والنملة مشهورة وخلاصتها ان تلك الحشرة التي تصرف اوقاتها في الغناء جاءت في الشتاء الى النملة وطلبت منها ان تقرضها شيئًا من القوت حتى يمضي فصل الشتاء · فاجابتها النملة ولكن ماذا كنت تصنعين في الصيف في ايام الحصاد ولماذا لم تذخرين شيئًا لهذا اليوم العصيب · فاجابتها الحشرة · في ايام الحصاد كنت اغني · فضحكت النملة واجابت : كنت تغنين يومئذ · اذًا فارقصي الآن · ــ وقد اراد لافونتين بهذا المثل البديع اظهار وجوب التدبير والاذخار لاوقات الضيق

نأكل بعضنا بعضاً احياناً ولكننا نفعل ذلك حين الحاجة فقط قياماً بسد عوزنا . اما انتم فمع كونكم ذوي عقول تعقل ونفوس تدرك فانكم تأكلون بعضكم بعضاً بحاجة ومن غير حاجة . وكثيراً ما يكون ذلك ارضاء لكبريائكم فقط لا لضرورة : ولذلك قال احد حكمائكم (١) ياوحوش البرّ وافاعي الغابات خذيني اليكِ آكل من طعامك واشرب من مائك لا تخلص من محبة الانسان

فقهقه كليم هنا وقال نعم هذا خير ما يُعتذر به عن طياشة ذلك الطوّير المطرب

وكأنّ المكاري ضجر من هذه اللغة التي لم يكن يفهم منها شيئاً فحول ضجره الى غضب على جواده فصاح به باعلى صوته « ديه سُوق .. » وهمّ باتمام عبارته . فصاح به كليم اياك ان تكملها يا جرجس . فقال جرجس وما هذا يا معلمي . فقال كليم انت فهمت كلامي بلا تفسير

فسأل سليم كليماً وما معنى كلامك . فاجاب كليم باللغة الانكليزية : هي نادرة مضحكة تحدث بين بعض هؤلاء المكارين والعائلات المدُنية التي تصيّف في قراهم . فانهم يسمون هذه العائلات « سَوقه » وحينما يرومون التهكم عليهم في الطريق يقول احدهم لرفيقه « سوق يا اخي سوق يلعن ها لسوقه » يُظهر انه غير راضٍ عن سير الدواب والحقيقة ان مراده « سب « السوقة » في وجوههم دون ان يدروا بذلك

فضحك سليم وقال : يظهر ان صاحبنا غير راضٍ عنا حتى رام اهانتنا . والذنب في ذلك ذنبنا لاننا لم نهتمّ بملاطفته لنستميله الينا . ثم التفت سليم الى جرجس ليفاتحه بالحديث فقال

ــ لماذا سرتَ بنا يا جرجس على هذه الطريق من الوادي . خذنا من فوق عن طريق « فيع »

فقال جرجس لا يا معلمي لا نستطيع الآن المرور عن طريق فيع لحدوث خصام شديد بين قريتنا واهالي تلك القرية منذ يومين

فقال سليم نعم سمعنا بهذا الخصام ويقال ان قد جُرح رجلان واسقطت امرأة في اثنائه فما سببه

فقال جرجس . سببه يا معلمي خصام بين اولاد فيع واولاد قلحات . فقد كان خمسة اولاد من اولاد فيع يلعبون بازاء حقول العنب الكائنة بين القريتين ويأكلون من العنب بلا حق فاسرع اليهم ثلاثة من اولادنا لردعهم عن الاعتداء على رزقنا ففرّ اولاد فيع ووقفوا بعيداً فصار اولادنا يتغنون بغناء قديم عندهم وهو

---

(١) لابروبير

يا رايح الى فيع دبدب لا تضيع
يابسين قلحات احسن من شيخ فيع

وكان بين اولاد فيع ابن شيخ فيع نفسه فاغتاظ لاهانة ابيه فركض الى شجرة توت قريبة فتسلقها وقصف منها غصناً ثم اندفع نحواً ولادنا بينما كان رفاقه يتغنون بغنائهم

يا رايح الى قلعات تمتلي منها ٠٠ اط
يابسين فيع احسن من شيخ قلعات

ولما وصل ابن شيخ فيع الى اولادنا امسكوه(ونزلوا فيه) ضرباً فاسرع رفاقه الى نجدته فدار الضرب بين الفريقين فجرح منهما بضعة اولاد · فركض حينئذ احد اولادنا ووقف فوق القرية وصاح ان اهل فيع قتلوا اولادنا · فهبَّ كثيرون من الرجال الى محل الحادثة · وكذلك ركض احد اولاد فيع وابلغ اهلها مثل ذلك الخبر فاسرع بعض رجالها ايضاً · ولما التقى الفريقان في محل الحادثة دار الضرب بين الكبار بعد ان كان بين الصغار ولو لم يحضر «الآغا» مع نفرين لاشتبك القتال بين اهل القريتين جميعاً · ـ ولذلك لا نقدر ان نمرَّ الآن بجانب فيع لئلا يتحرشوا بنا كما انهم هم ايضاً لا ينفردون للمرور بجانب قريتنا

وكان الجوادان قد صعدا في ذلك الحين من وادي قلحاط وجانبا قرية فيع · ذلك ان قرية قلحات كائنة على اكمة منخفضة بين واديين من اشجار السنديان واحد من جهة الشرق وواحد من جهة الغرب · وهي على مسافة ربع ساعة من دير البلمند المشهور المشرف من جبله العالي على مدينة طرابلس الشام · وهواء هذه القرية جاف نقي لانها واقعة بين حرشين من السنديان كما تقدَّم

وقطع سليم وكايم الطريق حتى فوق فيع دون ان يطلع نجم الصباح الذي وُعدا بطلوعه قريباً · فقال كايم لجرجس : لم تطلع نجمة الصبح بعدُ ياجرجس · فاجاب جرجس ستطلع قريباً · فضحك كايم وقال لرفيقه : يظهر ان صاحبنا «عملها معنا» فقال سليم واي شيء عمل · فقال كايم : للمكارين عادةٌ وهي انك اذا طلبتَ من احدهم السفر في الغد قبل طلوع نجم الصبح بنصف ساعة يجيئك قبل طلوعها بساعتين ويقول لك انها ستطلع بعد ربع ساعة · وهكذا تركب معه في ظلمة الليل وتقطع الطريق كلها وتصل الى مكان قصدك قبل ان تطلع نجمة الصباح · و بذلك يكفي نفسه ودابته عذاب الحرّ في اثناء الطريق · فالظاهر انه صنع معنا ما يصنعه غيره مع غيرنا · وربما وصلنا الى الجل قبل ان تطلع الشمس مع ان بيننا وبينه نحو خمس ساعات ·

فتثاءب سليم وقال اف لاجل هذا أشعر بنعاس شديد واكاد انام على ظهر الجواد

ولما رأى صاحبنا جرجس ان الحديث لا يطول بينه وبين رفيقيه بل هما يتحادثان معًا لوحدهما رأى ان يسلي نفسه بنفسه . وكان الجوّ صافيًا كانه مرآة الغريبة والنجوم تسطع فيه كمصابيح بعيدة معلقة في قبة الفلك فلا تكاد تنير طريق الجوادين في سيرهما . ولكن الجوادين كانا قد اعتادا السير في ظلام الليل ولذلك كانا يبصران الطريق المخططة كانهما في نهار . وهذا ما جعل الفارسين يعجبان له . وكان الهواء يهب في خلال نور النجوم الضئيل باردًا ضعيفًا فيشرح الصدر وينعش الفؤاد . وتلك الطبيعة القروية الساذجة كانت ساكنة هادئة كانها تستريح تحت جنح الليل من عناء النهار . فاثار هذا المنظر الجميل في نفس جرجس عاطفة الجمال الكامنة فيها فاندفع ينشد الاناشيد التي يعرفها . فهل درى حينئذ ذلك القروي الجاهل الساذج انه بعمله دلّ على ان نفسه كانت في تلك البرهة ارقى من نفسي رفيقيه الحضريين . ان نفسه لدى مناظر الليل البهية ثارت على غير علم منها واندفعت تترجم بالغناء والنشيد عما كان يختلج فيها حينئذ من عاطفة الجمال بسبب تلك المناظر . واما نفسا رفيقيه الحضريين فقد كانتا مشغولتين بالتثاؤب والنعاس عن الجمال الذي كان يحيط بهما . فلا ريب ان ذلك كان من افضل الادلة على ان النفس الاولى ربيت في احضان الطبيعة قليلة الحاجات قوية على كل متاعب الحياة . والنفسان الاخريان ربيتا ضعيفتين بين جدران المدن لا تستطيعان مقاومة سلطان ضعيف كسلطان النعاس الذي هو — لمن نام ساعتين او ثلاثًا — اخف الحاجات الطبيعية

ولما اخذ جرجس في الانشاد اصغى اليه كليم وسليم . وقال كليم اسمع اغاني الجبل . وكان جرجس ينشد

حنيّانا يا حنيانا يا حنيانا   يا قمر سلّم على غيابنا

فضحك كليم وقال « من سوء الحظ ان القمر غائب ايضًا » فضحك سليم لهذه الحاشية . اما جرجس فانه كان مستمرًا في الانشاد

ياظريف الطول وقّف تقولك   رايح عالغربه وبلادك احسن لك

خايف يامحبوب تروح وتتملّك   بتعاشر الغير وتنساني انا

فهنا التفت سليم الى جرجس وصاح به : ما هذا ما هذا الغناء اعده . فاعاده جرجس فتنهد سليم وقال لله درّ قائل هذين البيتين فكأنه خرق بنظره حجاب الغيب وتنبأ عما يكون من المهاجرة الى اميركا — « خايف يا محبوب تروح وتتملك » نعم قد راح المحبوبون

وتملكوا هناك « بتعاشر الغير وتنساني انا » نعم قد عاشروا الاميركيين وامتزجوا بهم وكثيرون منهم نسوا بلادهم وتجنسوا بغير جنسيتهم · فيا ايها الشاعر العامي الذي كُشف له الغطاء عن المستقبل قبل وقوعه انك شاعر عظيم وان كنت لا تعرف القراءة والكتابة

وفي خلال تبادل هذه الافكار بين سليم وكليم كان جرجس يجدُّ في الانشاد في هدوء ذلك الليل فيدوي صوته دوياً

يا ظريف الطول يا سنّ الضحوك يا مربى الدلال بحضن امك وابوك
جاني خبر يا حبيبي خطبوك تخطب يا عيني وتتزوج بالهنا

ميجانا عميجانا عميجانا يا حبائب لا تغيبوا جيت انا ·

واقفة بالباب والباب صغيّار تنظرلي بعينها وصرت انا محيّار
وياللي مفارق حبيبو كيف حالو صار ما حد فارق حبيبو غيري انا

وكانَّ جرجس سئم هذا القدّ بعد دورين فدخل باعلى صوته في القدّ الآتي الذي يحلو لحنه على الخصوص في هدوء الليل

هلولولو ليا هلولولوليا عيني ياموليّا يا نائمين انهضوا جتكم حراميّا

ونقولي صابوني ونقولي صابوبي مروا عليّ العدى وبالعين صابوني
ولو قطعوني شقف كالواح صابوني ما بحيد عن عشرتك يا نور عينيّ

هلولوليا هلولوليا عيني يا لابنيّة يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيّا

ومن هون لارض الدير ومن هون لارض الدير السرّ اللي بيننا ايش وصّلو للغير
وان كان ما فيه ورق لاكتب على جناح الطير وان كان ما فيه حبر بدموع عينيّ

وتجوشي بالكره وتحوشي بالكره يا خدود بنت لكم يازهرة الحمرا
وان عيروني وقالوا محبوبتك سمرا سمره تشيل الحمل قنطار وشويّا

هلولوليا هلولوليا عيني يا لابنية يا نار قلبي اشعلي واشوي لحم نيا

والبنت تقول لامها يا امي ظلمتيني اول عريس طلب ليش ما عطيتيني
وثاني عريس اللي طلب دينو على ديني وثالث عريس اللي اجا يانور عينيّ

ثم انتقل الى القدّ الآتي

يـا دوم عيني يا دوم   تعذبني وتقول اليوم

يا طير ياللي طاير   يا للي اسمك عبد الله
بوسه مابيحصل منك(١)   ياللي ما تخاف من الله

يا طير فاينك طاير   قاعد براس الزعروره
جيب من حبي علامه   الله يخلي هـا الصورة

ولما سئم الفارسان صوت مكاريهما أخذا في الحديث . فقال كليم انني اشعر بانّ جوادي صار بعد الغناء انشط مما كان قبله فهل تظن ذلك لانه طرب لصوت صاحبه . فقال سليم دع المزاح جانباً فانني انا نفسي صرت اشعر بشيء من النشاط وذهب عني النعاس تقريباً بعد سماعي هذا الغناء . ولا شك ان ذلك من تأثير الشعر عليّ فقال كليم وهل اعجبك هذا الغناء . فقال سليم ان الأمر الذي ادهشني في هذا الغناء رقته وتجرّده من الاقوال الباردة التي تخدش الأدب . وظاهرٌ ان هذا الغناء غناء عامي وهو من ملاهي الطبقات الضعيفة . فاقتصاره على وصف العواطف الحبية بكلام رقيق ادبي خالٍ من الالفاظ القبيحة والتلميحات الفظيعـة دليل مدهش على ارتقاء الاداب هنا بين العامة وصلاح نفوسها . لانك تعلم ان الاناشيد العامية قد تكون افضل دليل على اخلاق الامم . وحقاً ان من يسيح في اقطار العالم ويشاهد قبائح بعض طبقات العامة فيه ثم يعود الى بلاد كهذه البلاد ويسمع اناشيد كهذه الاناشيد يفضّل آداب هؤلاء السذج على آداب كثير من عامة الغربيين المتمدنين

وكان الجوادان قد قطعا عند هذا الكلام قرية فيع وانحدرا في سهل بطرام . فالتفت كليم الى المكاري وصاح : يا جرجس لم تطلع نجمة الصبح بعد . فاجاب جرجس وهو يحك رأسه باظافره : ستطلع قريباً يا معلّمي . ثم لطم كفل الجواد بيده صارخاً ديه . ديه . فقال سليم ان سوقك الجواد يركضه هو اما نجمة الصبح فتبقى في مكانها دون ان تركض فركّضها هي اذا قدرت . فتنهد جرجس هذه المرة . ولا شك انه قال حينئذ في نفسه شيئاً لا يحلو للرفيقين .

وبعد سكوت خمس دقائق التفت كليم الى سليم وسأله على اي شيء عزمنا الآن في سفرنا هذا . هل نذهب الى اهدن لمشاهدة اصحابنا فيها ام لا . فقال سليم الأمر اليك

---

(١) هذا على ما نظن اقصى حد في الخلاعة يصل اليه هذا الغناء العامي هناك

فقال كليم بما اننا ذاهبون الآن الى الارز عن طريق الحدث وهي الطريق الغربية فاننا نعود منه عن الطريق الشرقية طريق اهدن · فسأل سليم اذاً لا نعود الى الحدث بعد مبارحتها ؟ فقال كليم كلا فان طريق اهدن مقابلة لطريق الحدث · فقال سليم اذاً يجب ان نقيم عشرة ايام في الحدث بدل الخمسة التي اتفقنا عليها وذلك اكراماً لصاحبنا فيها · فقال كليم سنرى ذلك بعد وصولنا · فقال سليم وكم يوماً عزمنا على الاقامة في الارز · فاجاب كليم بقدر ما تطيب لنا الاقامة · فقال سليم هل وزنت نفسك قبل السفر من طرابلس · فقال كليم نعم فكانت زنتي ٦١ اقه · وانت · فقال سليم انا وزنت نفسي قبل سفري من بيروت فكانت زنتي ٥٩ اقه : فقال كليم هازاً رأسه · كانما وزننا وزن طيور لرقة اجسامنا · فقال سليم ضاحكاً لا تعبِ الرقيق ولا تستضعفه فالرعود والصواعق لا تنشأ الا عن رقيق السحاب · فقال كليم لا ريب عندي انك بعد نزولك من الارز تتغير رأيك فتمدح السمان لا الرقاق لان كل واحد منا سيزيد على الاقل ٥ اقات ·

وبعد نصف ساعة انقضى في سكوت تام لان كل واحد من الرفقاء الثلاثة كان يناجي نفسه واذا بجرجس يصيح ملء صوته : الحمد لله · فقال كليم ماذا فقال جرجس طلعت النجمة فالتفت كليم وسليم الى جهة الشرق وكانت امامها فابصرا « الزهرة » في طرف المشرق من وراء الجبال تتهادى بجمالها الفتان ونورها الباهر تتيه به على جميع النجوم الزواهر التي كانت تزين حينئذ قبة الفلك الدائر · فصاح كليم وسليم لدى هذا المنظر الفخيم : تبارك الخالق · تبارك الخالق · اما جرجس فانه رفع يديه نحو رفيقته في اسفاره وقال « هلِك ومستهلِك جعلك علينا يوماً مبارك » فنسي لفرحه ان هذا الكلام يُقال للهلال حين ظهوره في اول الشهر لا لنجم الصباح · ولكن ما الذي يمنع جرجس ان يقول لرفيقته المحبوبة ما يُقال للهلال عادة هل هو افضل منها · كلا · لانها تهدي في آخر الليل كما يهدي الهلال في أوله · واذا كان لاحدهما مزية على الآخر فالمزية (للنجمة) الجميلة · ذلك لان صحبة الهلال تنتهي بالاستياء منه لافوله ويبقى المسافر حزيناً بعده لما يجده من الوحشة اما صحبة (الزهرة) فتنتهي بالسرور لانها رسول الصباح ومقدمة النور · وكل الذين عانوا مشاق السفر في الظلام في ليالي البرد والمطر والريح واخطار الطريق يعرفون قدر (الزهرة) متى طلعت تبشر بدنو الشمس التي تنعش وتدفىء والنهار الذي يبعد الاخطار · فهي عندهم رسول الامل وابتسامة الطمأنينة وعهد من الخالق على نفسه ان لا يجعل ظلام الليل ظلاماً ابدياً · فهي اذاً عندهم حاجة وضرورة لا مسرَّة يُلهى بها وتُفرّج النفس بمشاهدتها · ولذلك كانت حياتهم

ومعيشتهم مرتبطة بحياتها . وهذا هو السبب في انه بينما كان سليم وكليم يخاطبانها بقولهم (يا الاهة الجمال التي عبدها الاقدمون . يا عروس كواكب السماء . يامضيعة ابن رشد(١) ـ كان المكاري جرجس ينظر الى دليلته السماوية نظر المرؤوس الى رئيس له تربطه به مصالح ومنافع متبادلة لا لمجرد الاستحسان فقط . ولو مثلت الزهرة حينئذ فتاة كما كان يمثلها المتقدمون لشوهدت تبتسم للمكاري جرجس وتهتم به اشد من اهتمامها برفيقيه الحضريين الظريفين

الفصل الثاني

﴿ كلام عن الدير امام دير ﴾

عند كسبا . مدخل الجبل الحقيقي . صورتان للدير واحدة عليه وواحدة معه . النذور الثلاثة التي من اجلها اضطهد الفرنسويون رهبانياتهم . تغيير وظيفة الدير بعض الشيء تبعاً للعصر الجديد وجعلها التعمير والتمدين

وبعد برهة اخذت ذرات الفجر تنتشر في الفضاء وصارت نجوم السماء تبهت خجلاً من سلطانة النهار القادمة على هودجها الناري ببهائها العادي . وقد طلعت الشمس لاصحابنا الثلاثة عند قرية كسبا حين دخولهم بين الجبلين في الطريق المؤدية الى اعالي لبنان (١) وان من لم تطلع عليه الشمس في ذلك المكان بعد السير اربع ساعات في ظلمة الليل لا يدرك اللذة التي شعر بها سليم وكليم حين استقبالهما تلك الطريق الصاعدة . فقد كان عن يمينهما جبل عال يمران بجانبه وعن يسارهما جبل آخر عال بعيد عنهما . وعلى قمة هذا الجبل الشمالي بناء حوله اشجار باسقة ولكنها تظهر صغيرة لبعد المسافة والبناء بينها كانه عش طائر بني هناك في مأمن من الزوابع والعواصف . وفي الحقيقة انه كان عشاً بني للامن من العواصف ولكنه عش انساني بناه البشر الذين يحبون الانفراد عن معارك الاجتماع وعواصفه وهو الدير

(١) وجدوا في تلاخيص الفيلسوف ابن رشد في حياته هذه العبارة « ظهر ان الزهرة احد الالهة » فكان هذا القول من جملة الاسباب التي اتخذها حساده لنفيه والنقمة عليه . راجع ابن رشد وفلسفته الصفحة ١٧

* ١ * صارت المركبات اليوم تسير على طريق اهدن حتى بشري ولذلك انصرف اليها المسافرون عن هذه

المعروف بدير «حنطوره» ـ وعلى موازاة الطريق الى اليسار تحت الدير يسمع الراكب هديرًا شديدًا ناشئًا عن مرور نهر ابي علي في واديه المقدَّس منحدرًا الى طرابلس · وكلما صعد الراكب بين ذينك الجبلين على الحان النهر بين نسمات الصباح التي تداعب وجهه باردةً اكثر من هواء السهل يشعر ان جبل لبنان الحقيقي انما يبتدئ من ههنا · وحينئذ يخطر في باله ان سكان هذا القسم من الجبل كانوا في كل الازمنة والعصور قذى في عيون الفاتحين· فان جبالهم كانت تحميهم اكثر من كل الحصون والمدافع· ولذلك كانت تلك الارض عبارة عن حرَم الحرية المقدس · نعم ان هذا الحرَم قد فُتح مرارًا ولُطّخ مرارًا ولكن الغلبة كانت دائمًا للمدافعين عنه · ذلك ان الطبيعة نفسها كانت تحارب معهم بين صفوفهم · وربَّ مائة رجل من اهله فقط لقوا بين تلك الآكام والوهاد عشرة آلاف جندي بمدافعهم دون ان يتركوا لهم سبيلاً اليهم — فثارت عواطف سليم وكليم وتصوراتهما لدى هذه الافكار وهذه المناظر الجميلة فاحسا انهما صاعدان الى عالم آخر غير هذا العالم · ويظهر ان نفسهما قد خفَّت حينئذ ونشطت عما كانت فيه اولاً فنزلا عن جواديهما ليتلذذا بالسير على اقدامهما فوق تلك الارض الجديدة · وكان سرورهما بالمشي في تلك الساعة على تلك الارض المؤدية الى الاماكن التي تنطح السحاب ويعممها الضباب دائمًا يعادل سرور الاولاد حين انصرافهم من المدرسة الى نزهة خصوصيه

وبعد ربع ساعة كثرت العقبات في الطريق فعاد كليم وسليم الى جواديهما فنبههما جرجس ان ينحرفا على ظهر الجواد قليلاً الى امام في عقبة الصعود وينحرفا قليلاً الى وراء في عقبة النزول — فضحك سليم وقال هذا درس في « طريقة الركوب في العقبات » ثم اخذ الرفيقان يتحادثان لقطع الوقت بعد ان وجدا في المشي شيئًا من الراحة · ولا عجب فكما ان السكوت بعد الحركة فيه راحة كذلك الحركة بعد السكون ·

فقال سليم : ما رأيك ايها الصديق في الاقامة طول العمر في هذا الدير الجميل الذي شاهدناه · هل تعرف مكانًا اجمل من هذا المكان للراحة والسعادة

فقال كليم سؤالك هذا يذكرني سؤالاً آخر · يقول كتاب العرب ان الحواريين « الرسل » سألوا المسيح « من افضل منا · اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا » فاجاب « افضل منكم من يأكل من كسب يده » فالافضل والاجمل من الاقامة في هذا الدير الدخول في العالم والاكل من كسب اليد لان خبز الاحسان خبز دنيء كما قال روسو

فثار هنا جرجس وقال : ارجوك يا معلمي ان لاتجدف على الدير والرهبان · فاننا في

طريق . واخاف على افراسي لا على نفسي . وبالامس كان جارنا ابو يعقوب سائرًا قرب البلمند قادمًا من المدينة (يعني طرابلس)وكان الراكب على حمارته واحدًا من (السوقه) لا يحب الرهبان وكان يتهكم عليهم . فبركت الحمارة في الارض قرب الدير ولم تنهض حتى نذر ابو يعقوب للدير نصف الاجرة التي ياخذها من الراكب

فصاح كليم بصاحبه اسمعت قول الرجل ؟ هذه هي المبادىء التي يعلمها للشعب الرهبان الذين نسلمهم ارزاقنا وننفق على تسمينهم كالعجول .

فقال سليم : هذه مسالة اخرى غير تلك فاننا لا نبحث الآن في هل هم قائمون بوظيفتهم التي وُجدوا لها ولكني اسأَلك هل تحبُّ المعيشة في الدير اذا كان الدير قائمًا بحسب النظام الذي وُضع له للغرض الحقيقي الذي يجب ان يوضع له . فاجبتني انك تفضل على هذه المعيشة معيشة الانسان الذي يأْكل من كسب يده

فقال كليم نعم هذا هو رأْيي . لاني اكره الكسل والبطالة ولا استطيع اتصوّر اناسًا كالبعوض والبق والعلق والبراغيث يعلقون على جسم الهيئة ليمتصوا دماءها وهم قاعدون بلا عمل بحجة انهم يخلصون انفسهم ويصلون لغيرهم

فسكت سليم برهة يفتكر . ثم قال : كل من يسمع هذا الكلام يوافقك عليه لاول وهلة . ولكن لدى التأمل يظهر انك ظلمت المعيشة الديرية بهذا الوصف الذي لا ينطبق عليها الا اذا كانت بلا عمل ارضي ينفع كما قلتَ . قلتُ «ارضي» لانَّ «السماوي» ليس من بحثنا الآن . وعندي ان معيشة الدير لها صورتان كل واحدة منها جميلة بحد ذاتها . ويطيب لي الآن في هذه الارض ارض الاديرة والرهبان ان ارسم معك هاتين الصورتين . واذا كان في الهواء الذي يحيط بنا اذان خفية تسمع ورامت ايقاف صوتنا فنحن باسم اله الحرية الساكن في هذه الجبال نقوى عليها . ذلك لانها لا تستطيع انكار اله الحرية اذ طالما استنجدت به في هذه الجبال . وبما ان الحرية واحدة لا تتجزاء ولا تنقسم ـ سواء كانت في الفعل او في القول ـ فمن الحق والعدل ان نخضع لهذا الاله بعد ان اخضعت له غيرها

« فالصورة الاولى للمعيشة الديرية هي ما ذكرتَ . بشرٌ ضعفاء من طبقات لا تقدر على كسب رزقها ينسدُّ في وجهها باب الرزق في العالم وترهب معارك الحياة وتنازع البقاء فتطلب مكانًا تلتجىء اليه وتعيش فيه بامان . وهي للحصول على هذه المعيشة تتنازل عن اشرف واثمن ما لدى الانسان اريد حريته الشخصية . فتصبح آلة في يد الرئيس لا ارادة لها ولا قوة . ذلك انها تنذر اول كل شيء الطاعة العمياء . ثم الفقر . ثم ترك الزواج .

وبهذه النذور الثلاثة المشهورة تحرم الهيئة الاجتماعية قوات ضرورية . فبنذر الطاعة تضع ضميرها بين يدي الرئيس وما ادراك ما هو التنازل عن الضمير . فان ذلك ينفي شخصية الانسان ويحقّر الانسانية فيه ويجعل تحت سلطة ذلك الرئيس جيشاً كثيفاً مطيعاً يؤثر اشد تاثير على الهيئة المدنية لفائدة الهيئة الدينية . وبنذر الفقر يحرم الانسان نفسه وغيره ثمار تعبه من خيرات الارض التي حُلل له التمتع بها . فيعيش ذليلاً وضعيفاً . وبنذر العفاف يجني على امته لان الامم يهمها تكثير النسل وهي لا تأْلو جهداً في الحث عليه بالطرق المحللة . — فالنذور الثلاثة اذاً تعارض المدنية الحاضرة وتعاكسها . لا سيما وان هذه المدنية جلبت معها مبادىء جديدة مناقضة لمبادىء الهيئة الدينية كل المناقضة في كثير من شؤونها الاساسية

« والصورة الثانية للمعيشة الديرية ان ينقطع بعض البشر عن البشر لنفع روحي ومادي . اما النفع الروحي فلا يدركه حق الادراك الا كل من رمته عواصف الدهر بين معارك الحياة اليومية ورأى ما في هذه المعارك من الهمجية والخشونة والفظاعة . فهناك واسفاه يكون البشر حيوانات وحشية لا بشراً . هناك الظفر والغلبة لا يكون بالاستقامة والفضل وشرف المبادىء والاخلاق . فان هذه الفضائل التي هي جميلة في المجتمعات الرسمية والنوادي الادبية تكون سبباً لضعف صاحبها في وسط تلك المعارك لا لقوّته . وانما يكون الظفر والغلبة للاكثر وقاحة والاكثر ظلماً والاكثر اعتداء والاكثر خداعاً . ولذلك قال رنان : ان الانسان لا يكون دائماً قوياً في الحياة الا متى كان يُظهر دائماً انه كان مغشوشاً في ما صنعه من الخطاء مع انه كان غاشاً . فماذا تصنع النفوس الحساسة اللطيفة التي جبلها الله لا تحب الغش والظلم والاعتداء حين وجودها في هذا الوَسط الهائل . هل تسلّم سلاحها خافضة جنح الفضيلة امام وقاحة الرذيلة وتقع في ميدان العراك في جملة الاسرى او القتلى ؟ ام تخلع عنها ثوب الفضائل السماوي الذي البستها اياه اليد الجميلة الابدية لترتدي بدله بثوب الظلم والاعتداء والغش والنهب والسلب وتصنع ما يصنعه غيرها ؟ وهل يجوز ان تبخل عليها الارض والسماء حينئذ بزاوية صغيرة في احدى زوايا الارض لتعيش فيها بامن وسلام دون ان تُضطر الى ذلك الانحدار وهذه الجناية

« ان هذه الزاوية هي الدير . فالدير وُجد لسد فراغ في نفوس فريق من البشر في الارض . وهو موجود قبل الديانة المسيحية بقرون عديدة لان انفراد بوذه وانصاره في جبال الهند نوع من المعيشة الديرية . وستبقى هذه الحاجة لازمة في الامم ما دام فيها نفوس

نتاً لم وجهاد في تحصيل الرزق والطمع يحكي جهاد الفاتحين . وقد احترم صاحب الشريعة الاسلامية هذه الحاجة لانه اوصى بالصوامع والرهبان خيراً . وكذلك الخلفاء الراشدون . فضلاً عن ان التكايا التي انشأت بعد ذلك في انحاء العالم الاسلامي انما هي نوع من المعيشة الديرية ايضاً . وهذا يدل على ان هذه المعيشة الاشتراكية للزهد والانقطاع الى الله كانت حاجة من حاجات النفوس في كل الازمان

«اما النفع المادي فهو اعتبار الدير عبارة عن قوة ممدنة تستعمر الجهات التي يكون الدير قائماً فيها . والدبور انما تقام عادةً في القفار والجبال والقرى البعيدة . اي في الاماكن المحتاجة اشد احتياج الى تعمير واحياء . فتامل مقدار الخير الذي يستطيع ذلك الدير صنعه في تلك الجهات اذا جعل نفسه عبارة عن شركة عظيمة يجتمع حولها اهل القرى ليتلقوا منها طريقة زراعة الارض ويتعلموا صناعات جديدة ويعتمدوا عليها في جميع شؤونهم العملية اعتماداً متبادل النفع بين الفريقين . فان الدير يصير في هذه الحالة عبارة عن مركز اعمال القرويين ومستشارهم في جميع اشغالهم . وكيف لا يحلو للمتامل ان ينظر ذلك الراهب الذي كان يصلي الى الله منذ مدة يأخذ معوله وفاسه ويقصد حقول القرية حيث يقابله اهلها كرسول العلم والثروة والمدنية بينهم ويسترشدون بارشاداته التي اكتسبها بالدرس والمطالعة والتي لا تصل الى هؤلاء القرويين بدونه . لا ريب ان هذا الامر يساوي عندي على الاقل خروجه من الدير وبيده الانجيل لعيادة مريض في القرية او تسلية حزين . ولست اعرف شيئاً في العالم يعادل نفعه نفع هذه الدبور في التمدين والتعمير اذا سلكت باخلاص ونزاهة هذا السبيل

«هذا فيما يختص بالاشتراك الخارجي بين اهل الدير واهل القرى في تعمير الاراضي ونشر الخير والثروة حولهم . بقي هناك اشتراك آخر داخلي . وهو تعاون الافراد المجتمعين في ذلك الدير على جعل معيشتهم فيه عبارة عن مثال لارقى حكومة في الارض . فان اهل الدير قد ارتفع عنهم عند دخولهم اليه همّ تحصيل الرزق والطمع والجهاد في سبيله . وذلك مما يسكن النفس ويبني قواها . ثم اضف الى ذلك الانفراد عن معارك الحياة تجد ان النفس تصفو في ذلك الانفراد عن كدوراتها اليومية وتتملص من كل اهوائها الفاسدة التي كانت تضغط عليها وتعذبها في حالة الاجتماع . وهكذا يصبح اهل الدير عبارة عن بشر فوق البشر لانهم خرجوا عن دائرة البشر . ويصير البشر في الاجتماع ينظرون اليهم نظرهم الى معلمين مرشدين موضوعين فوقهم . فكأنّ الانسانية في هؤلاء المنفردين قد تكررت وتصفّت وصارت انسانية جديدة

لا همّ لها في الارض غير صنع الخير ومساعدة الضعفاء . وهذه الحالة تسوقهم بالطبع الى الاشتغال بالعلم والأدب وهنا مسألة المسائل الجديرة بكل اهتمام . هنا مفتاح ترقية العلوم والفنون والصناعات المختلفة . اذ ماذا يصنع الرهبان في كل اوقاتهم الطويلة . وباي شيء يقطعونها . هل من شيء يُقطع به الوقت (ما عدا صنع الخير) انفس من الاشتغال بالعلم والادب . وبذلك يكمّل الرهبان المنفردون في اديرتهم الجميلة نقصاً ظاهراً اليوم في هيئتنا الاجتماعية . انظر الى الحركة العلمية والادبية عندنا تجد انها مطلوبة للمال لا لذاتها . وبما ان طالبي العلم والأدب يهتمون بالمال اكثر من اهتمامهم بالعلم فالعلم يبقى بيننا قاصراً . ذلك لان العلم لا يتقدم ولا يترقى الا اذا امكن للمشتغلين به الانقطاع اليه انقطاعاً لا دخل لشهوة المال فيه . وهذا امر بعيد الحصول عندنا ما دام اصحاب الثروة لا يشتغلون بالعلم . فالرهبان اذاً عليهم سدّ هذا الفراغ لانهم قادرون على الانقطاع اليه اتم الانقطاع اذ كل حاجاتهم مضمونة عندهم . وفي وسع كل واحد منهم ان ينقطع الى علم او فن في عشرين سنة او اربعين فيرقيه اتم ترقية عندنا دون ان يحتاج شيئاً . وحينئذ تصبح الديور مصدراً لنهضة علمية جليلة ويصير كل واحد منها عبارة عن اكاذيمية كبيرة كل عضو من اعضائها عالم في فن وفي علم . ومجموع الاعضاء يتألف منه مجموع المعارف البشرية . والاختراعات والاكتشافات تتتابع من هذه الاكاذميات الجديدة لنشر الخيرات في الامة وتحسين شؤونها . فتكون هذه الديور مثالاً « للعلم » كما كانت مثالاً (للصلاح) في ما تقدم . وهي ما عدا ذلك تكون ايضاً مثالاً (للنظام) المطلق . فان معيشتها اشتراكية محضة . الكل اخوة متساوون قولاً وفعلاً . وليس احد فيهم يقول هذا لي لان كل شيء يكون بينهم مشتركاً . ولكنهم مع تساويهم هذا خاضعون لسلطة عليا خضوعاً تاماً بلا مراجعة ولا تردد لعلمهم انها لا تأمرهم الا بالخير وما فيه خير . ولذلك ترى اكبرهم واصغرهم يعفران رأسيهما بابتهاج وسرور تحت قدمي هذا النظام الذي انقذهما واعطاهما هذا الوسط الهادئ النقي — وهكذا بينما تكون الدنيا قائمة قاعدة بالاضطرابات والفتن والثورات بين كل الطبقات . بينما ترى روح الاستفراد العصري الذي ضرب به رنان بسوطه ضربات شديدة (١) يبذر بذور الشقاق في العالم حتى بين الأب وابنه والمرأة وزوجها لرغبة كل انسان في ان يعيش حراً على هواه — ترى الهدوء والنظام والخير عامة شاملة في الدير وما حوله من القرى . كانه صار قطعة من الجنان »

وهنا سكت سليم واخذ يمسح العرق عن جبينه لانه قد تحمس في اثناء وصفه . فصاح

« ١ » الجامعة السنة ٤ الجزء ٣ الصفحة ٨٧ السطر ٣

جرجس مسروراً : عافاك عافاك يا معلمي هكذا يجب الكلام عن آبائنا الرهبان · اما كليم فانه قهقه شديداً وقال لرفيقه : كفى تحلم كفى تحلم · فهم في واد وانت في واد · ومن كلامك يظهر انك لا تعرف ما هو الغرض من الدير فمسكين انت ايها الجاهل · معنى الدير عندهم اليوم ان يقيم فيه الرهبان يكررون صلوات مألوفة ويجمعون من الناس بحجة هذه الصلوات ما امكنهم جمعه من المال سواء كان نقوداً او اوقافاً ذات دخل عظيم · والسذج يبذلون بسخاء في هذا السبيل ابتغاء للثواب على ما يقولون · وهكذا بدل ان تكون هذه الديور ناشرة للثروة والخير في ما حولها من القرى صارت ممصاً للثروة لنفسها · وقد قلت ان اهل العلم عندنا مضطرون الى الافتكار بالمال قبل العلم والا تعذر عليهم الاشتغال به · فانا اخبرك ان اهل الدين ـ الذين وظيفتهم نذر الفقر كما ذكرت ـ صاروا ايضاً يفتكرون بالمال قبل الدين

فقال سليم : لا لست احلم بل انا انظر الى الدير كما يجب ان يكون وانت تنظر اليه كما جعلوه اليوم · وهذا اوضح دليل على ان كل شيء انما يصلح ويفسد تبعاً للطرق التي يُستعمل بها والاشخاص الذين يتولون استعمالها · وهذه مسألة المسائل في كل الشؤون حتى سياسة الامم · ولست اظنك تزعم ان الديور كانت في القديم (واعني القرون الاولى لا القرون المتوسطة) على حالتها الحاضرة اليوم · فانها لو كانت كذلك لما قام لديانتها قائمة · وانما كانت الديور يومئذ عبارة عن انقطاع حقيقي الى الله للخلاص من حياة الاجتماع التي تجر الانسان احياناً الى ما لا يهواه · ولا عتب في ذلك على اولئك المتقدمين لانهم كانوا يومئذ في الطور الذي يُسمى « طور الايمان الحار » ولذلك يجب ان لا نلومهم لانقطاعهم عن الناس بقولنا انهم فعلوا ذلك مدفوعين بعامل الاثرة وحب الذات فان الرغبة في معيشة الانفراد الاشتراكية كائنة في طبيعة البشر خصوصاً الضعفاء منهم · ولكننا اذا كنا لا نلومهم اليوم فاننا لا نحث الديور في هذا الزمن على ان تنسج على منوالهم بل نطلب ادخال تغيير على حالة الاديرة طبقاً للوصف الذي ذكرته آنفاً · فان الهيئة الاجتماعية قد تغيرت · والنفوس الدينية صارت كما يظهر من قولك لا تكتفي (بالايمان الحار) · فبناء عليه بطلت وظيفة الدير الاولى التي هي البعد عن البشر والانقطاع الى الله انقطاعاً حقيقياً وصار من الواجب ان يحل محل هذه الوظيفة وظيفة مساعدة الناس مادياً وادبياً كما وصفت ذلك آنفاً · والا فلا معنى لوجود الدير في هذا العصر · وانا على يقين ان هذا التغيير امر سهل وكثيرون من رجال الدين يرضون به لانه يحيي البلاد والعباد بثروات الاديرة والاوقاف الدينية · انما يشترط فيه وجود

رؤساء كرام يفهمونه وينبذون الاطماع جانباً . فلماذا لا يقوم اكابر الطوائف وافاضلها لمراقبة اوقاف الاديرة والاملاك الدينية مراقبة شديدة بواسطة مجالس دائمة خصوصية تنشأ لهذا الغرض لانفاق دخلها الطائل في وجوه نافعة لمجموع الامة؟

الفصل الثالث

عين السنديانة

مجنون ليلى

وبقي سليم وكليم يتحادثان في هذا الموضوع حتى وصلا الى عين السنديانه وهي محطة يستريح فيها المسافرون في طريقهم الى اعالي الجبل . والمكان مؤلف من منزل اتخذه مستأجره حانوتاً يبيع فيه مواد الغذاء للمسافرين . وامامه دكة عالية قليلاً يجلس المسافرون عليها وبجانبها عين ينبع منها ماء بارد يشربه المسافرون بظماء ولذة بعد تعب الطريق وحرها

فنزل كليم وسليم للراحة وتناول الطعام . وبعد حين طلبا بيضاً مقلوّاً وجبناً وعنباً وجلسا يأكلان . واذا برجل قد دنا من احد الفرسين ومدّ يده الى الخرج الذي كان عليه واخرج منه جريدة انكليزية . فقال كليم لرفيقه . ما شاء الله ان صاحبنا يفعل بخرجنا ما يشاء « بدون تكليف » ثم نهض ودنا من الرجل وسأله . ماذا تريد . فعبس الرجل وقال . لا اريد شيئاً ولكنني احب ان اقرأ

ثم انه ادار ظهره لكليم وجلس على طرف الدكة ونشر الجريدة الانكليزية وصار يقرأ فيها .

فاستغرب كليم وسليم أمر هذا الرجل . وكانت هيئته وثيابه مما يزيد الاستغراب . فانه كان في نحو الاربعين من عمره بلحية كثة وخطها الشيب وشعر وافر في رأسه يتدلى من تحت طربوشه القذر . وكان طويل القامة عريض العضل يلبس ثياباً قديمة قذرة ويمشي بحذاء ممزق . الا ان سحنته كانت تدلُّ على الهدوء واللطف والسكينة

وبعد ان قرأ هذا الرجل بضعة اسطر في الجريدة رفع رأسه وضحك ضحكاً شديداً ثم قال: كلهن سواء . ثم التفت الى كليم وقال . اليس حقيقياً ما اقول . فقال كليم عن اي شيء تتكلم . فضحك الرجل ضحكاً اشد من ضحكته الاولى وقال وهو يهزّ رأسه طرباً

جننا بليلى وهي جنّت بغيرنا   واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم وقع على الارض والغمي عليه ·

فذعر حينئذ كايم وسليم · اما صاحب المحل فانه ركض مسرعًا وهو يضحك فنضح وجه ذلك الرجل المسكين وصدره بالماء · ثم التفت الى سليم وكايم وقال : لا تخافا فان هذا الرجل مجنون · بل هو نصف مجنون · وهو يصاب بهذه النوبة مرة كل يوم او كل يومين · فاشتد حزن سليم وكليم على حالة الرجل حينئذ و بادرا اليه يسعفانه بالمعالجة · و بينما كانا يفركان يديه بايديهما سألا صاحب المحل وما قصته واين بلاده فانه غريب عن لبنان على ما يظهر · فاجاب صاحب المحل · الذي سمعته انه غريب عن لبنان و يقال ان سبب جنونه حبه فتاة رام الاقتران بها فرفضت وهجرته · وهو من ذلك الحين يطوف البلاد على قدميه يأكل اذا وجد طعامًا و يصوم اذا لم يجد · واحيانًا ينام تحت سقف منزل واحيانًا تحت قبة السماء فهو شبيه برجل تائه على وجهه في البلاد · وكل الاهالي يعرفونه

فلما سمع سليم وكليم هذه القصة تأثرا تاثرًا شديدًا · ومما زاد تأثرهما امتزاج تعاسة الرجل بشيء غزلي جميل لانه جُنّ بسبب الحب كما سمعا · فقال سليم لرفيقه : حقًا انني لما كنت أسمع كلام صاحب المحل خيل لي وانا افرك يد هذا المريض ان يدي تمس الآن يد مجنون ليلى او غيره من عشاق العرب المشهورين · ومن العجب ان يبقى اليوم في الارض اناس رقاق الشعور شديدو الانجذاب النفسي حتى انهم يجنون بسبب الحب مع ما هو معروف في هذا العصر من اندفاع تيار الشهوات الحيوانية التي تقتل ذلك الشعور الدقيق

فسأل كليم صاحب المحل وما اسم هذا الرجل التعيس · فاجاب ان الناس يسمونه مخلوف وفي هذه البرهة اختلج مخلوف اختلاجًا شديدًا وصار يصرخ صراخًا هائلًا ويخبط بيديه ورجليه · فامسكه بها الثلاثة الحاضرون لئلا يؤذي نفسه · وكان قد اجتمع عليهم بعض من الاولاد وهم يعجبون من دنو سليم وكايم منه لان اكثر العامة في اقطار الشام يخافون كثيرًا ممن يغمى عليه ذلك الاغماء لاعتقادهم ان فيه شيطانًا يسبب ذلك الاضطراب · وهم يسمون المغمى عليه « واقع في الساعه »

و بعد حين ارتخت اعضاء مخلوف وتنهد تنهدًا عميقًا ثم فتح عينيه وصار يضحك لمن حوله ضحكًا لطيفًا كضحك الاولاد · فقال له كايم كيف حالك الآن يا مسيو مخلوف · فاجاب مخلوف : حالي كما ترى · فقال سليم : هذا امر بسيط وكثيرًا ما يقع فيه الناس اما بسبب الحر او ضيق الصدر اوالتعب · فجلس مخلوف حينئذ وقد ظهر الغضب في وجهه وصاح : لم

يؤثر فيَّ الحر ولا ضيق الصدر ولا التعب وانما هذه الجريدة الملعونة · فكيف تجيز لها السماء والارض ان تتركه وتذهب · هو يحبها كما يحب الهه · هو يطرح تحت قدميها اسمه وميراثه وشرفه لتتنازل وتاخذها وترضى فقط بالابتسامة له · ومع ذلك فانها تردّ هذه الهبات بقدميها وتنفرُ منه كالبرق وتختفي · فما هو جزاؤُها ياترى ؟ ا ليس القتل · والخنق · والحرق · والشنق · والدوس بالاقدام · والتقطيع قطعة قطعة

وكان مخلوف قد بلغ به الغضب عند هذه الكلمات مبلغاً عظيماً · فجحظت عيناه وانتفخت اوداجه وصعد الدم الى رأسه فكاد يخنقه وبدا الزبد على فمه كالجمل الهائج · فهال منظره سليماً وكليماً وعلما حينئذ انه قرأَ في الجريدة الانكليزية هذه الحادثة فاذكرته حادثته · فتلافى سليم الامر رغبةً في تسكينه وتعزيته وقال · لقد نطقتَ بالحق فان تلك الفتاة تستحق اكثر مما ذكرتَ · ولكن هل قرأْت ثمة حادثة مس « لنهيم » التي تشير اليها · فاجاب مخلوف وهو يلهث تعباً من اثر الهياج : لا · فماذا جرى لهذه الخبيثة بعد تركها حبيبها · فقال سليم · لقد لقيتْ عقابها · ـ فصاح مخلوف حينئذ وشرر الجنون واليأس تتطاير من عينيه « هل ماتت» فارتعدت فرائص سليم وكليم لذلك الصوت الذي حكى صوت وحش جُرح برصاصة · واجاب سليم · كلا كلا · فانه لا يموت احد الحبيبين اذا افترقا وخصوصاً اذا كان احدهما مظلوماً الا بعد اجتماعهما · فبهت مخلوف يتأَمل قليلاً ثم قال : وكيف ذلك · فقال سليم روى فرفوريوس عن نيقوديموس عن افلاطون عن ارسطاطاليس ان كل نفس مظلومة لحبها نفساً اخرى لا تموت اذا ثبتت في حبها وصدقت قبل ان ترى النفس المحبوبة · ولذلك فكلُّ فتاة تهجر فتىً يحبها و يثبت الفتى على حبه لها تعود اليه ذليلة من تلقاء نفسها بعد ذلك وتستغفره عن ذنبها وتطلب اليه ان يشاركها في حياتها · وهكذا جرى لمس لنهيم التي قرأْتَ في الجريدة حادثتها · فانها عادت بعد مدة ذليلة واستصفحت خطيبها

فهنا استوى مخلوف جاثياً على ركبتيه وابرقت عيناه برقاً غريباً وقال · واذا كان قد انقضى على غيبتها عدة سنوات

فادرك كليم في الحال ما قام في نفس ذلك المجنون التعيس فهمس في اذن رفيقه : انك تحاول نفعه بالامل ولكنك ستضره · فاجاب سليم وهل بعد الجنون من ضرر فانني الآن اجرب طريقة لاصلاح شأْنه وتسكين جهازه العصبي الى حين

ولما سأَله مخلوف السؤال الذي تقدم أَجابه سليم بقوله : سواءٌ كان الوقت قصيراً

او طويلاً فانها تعود رغماً عن انفها . ولكني لم اذكر لك الطريقة التي استعاد بها المستر «ارثور» حبيبته المذكورة . فانه قبل كل شيء ثبت على حبها ثبات الابطال . فكان لا يذكرها بكلمة سوء ولا يحكي قصتها لاحد . ثم كان يتظاهر باللطف والبشاشة دائماً ولا يضر احداً من الناس وينفعهم بقدر استطاعته . وكان على الخصوص يعتني بنفسه فيأ كل من الغذاء ما يكفيه ولا يتعب كثيراً بالطواف في البلاد ويداري صحته ما امكنه . وبهذه الطرق صار رجلاً جميل المنظر لطيفاً محبوباً من الناس . فما لبثت حبيبته ان عادت اليه تطلب منه الصفح عن هجرها اياه

وكان سليم يتكلم ومخلوف يفتكر . وقد اخذ العرق يقطر من جبينه فدلّ ذلك على ان نفسه كانت حينئذ في صراع شديد مع نفسها . ولما أتى سليم على آخر كلامه انهملت دموع مخلوف على خديه . فوضع رأسه بين يديه وصار يبكي بكاء شديداً فاغرورقت حينئذ بالدمع عينا سليم وكليم . وازدادت دهشتهما من ان يوجد اليوم في الارض اخلاص كاخلاص هذا العاشق المجنون التعيس .

ولما استغرق مخلوف في البكاء رام كليم تسليته من وجه آخر فقال له انت مصيبٌ في بكائك يا مسيو مخلوف . فبارك الله في عواطفك الرقيقة وقلبك الحساس . انك ولا شك تبكي على جميع الازواج التعساء في العالم . انك تبكي على الزوج المسكين الذي يتزوج ويُرزق اولاداً من زوجته ومع ذلك يرى عين امرأته ناظرة الى سواه - الى شاب اغض منه شباباً فتجعل حياته جحيماً دائماً انك تبكي على الزوج الذي يتزوج اليوم ثم تموت زوجته الفتاة الرطبة الجميلة بعد سنتين تاركة على ذراعيه طفلين يصيحان دائماً «يا اماه» بينما قلبه يصيح معهما يا «حبيبتي» - انك تبكي الزوج الذي يموت بعد زواجه بسنتين تاركاً ارملة فتاة وصغيرين لا معين لهما غير الله . انك تبكي الزوج الذي يرى عائلته تكبر شيئاً فشيئاً - كل سنة ولد - ويرى باب رزقه ضيقاً : فهذه الاحوال الاجتماعية جديرة يا مسيو مخلوف بدموعك . واذا كنتَ لم تتزوج بعدُ فاشكر الله لانك لم تقع في احدها

ولكن يظهر ان المسكين مخلوف لم يفهم معنى هذا الكلام او كأنه لم يسمعه لاشتغاله عنه بما كان يجول حينئذ في ضميره . فلما سكت كليم تحفز للنهوض فامسك به سليم وكليم ليشاركهما في الطعام فاعتذر ونهض . فحاولا اقناعه بالسفر معهما الى الحدث ومنها الى الارز . فلما سمع كلمة الارز قال لهما بهيئة جدية يضحك منها من يعرف جنونه انه مسافر بعد مدة للارز للسياحة هناك وانه سيقابلهما فيه . ثم تخلص منهما وودعهما باحناء راسه وسار في سبيله

كأنما هو في حلٍّ ومرتحل موكّلٌ بفضاء الله يذرعه

ولما غاب عن بصرهما في منعطف المكان التفت سليم الى رفيقه وقال حقًا ان حالته حالة مؤثرة . وبعد ان تناولا الطعام واستراحا قليلاً ركبا وسارا في طريقهما مع جرجس. وكان كل واحد منهما يفكر في مخلوف . وبعد برهة دار بينهما الحديث على الطريق لان الطريق خير محرّك للحديث. فقال سليم هذه اول مرة ارى فيها محبًا جنّ من حبه . فما احسن هذه الاخلاق الدمثة اللطيفة مع الجنون . فقال كليم اما انا فقد شاهدت مجانين عشاقًا قبل اليوم . وعندي قصة اشد تاثيرًا من قصتنا هذه . فانني منذ سنتين زرتُ في طريقي مع بعض الاصحاب دير قزحيًا حيث يُعزل بعض المجانين . فلما اشرفنا على مكانهم وجدنا احدهم منفردًا عن الباقين وهو جالس حزينًا ملوي الراس فقلنا « ان كان فهذا . فوقفنا به فسلمنا عليه فردّ السلام . فقلنا له ما تجد . فانشأ يقول

الله يعلم انني كمدُ لا استطيع ابثُّ ما اجدُ
نفسان لي نفس تضمنها بلدٌ واخرى حازها بلدُ
وارى القيامة ليس ينفعها صبر وليس يفوقها جلدُ
واظن غائبتي كشاهدتي فكأنها تجد الذي اجدُ

فقلت له احسنت والله . فاوماء الى شيء ليرمينا به وقال : امثلي يُقال له احسنت . فولينا عنه هاربين . فقال اسألكم بالله الا ما رجعتم حتى انشدكم . فان احسنت قلتم لي احسنت وان اساءت قلتم لي اساءت فرجعنا ووقفنا وقلنا له قل . فانشاء يقول

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهمُ ورحلوها وسارت بالدمى الابلُ
وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو اليَّ ودمع العين منهملُ
وودعت ببنان عقده عنم ناديت لا حملت رجلاك يا جملُ
ويلي من البين ما ذا حل بي وبها من نازل البين حلّ البينُ وارتحلوا
يا راحل العيس عرّج كي اودعهم يا راحل العيس في ترحالك الاجلُ
اني على العهد لم انقض مودّتهم يا ليت شعري بطول العهد مافعلوا

فقلتُ له ماتوا . فصاح وقال . ماتوا ? وانا والله اموت . ثم تربّع وتمدّد فمات لساعته . فما برحنا حتى دفناه » (١)

☆ ١ ☆ ليست هذه الحادثة تصنيفًا من المؤلف فقد وردت في اخبار المجانين في العقد الفريد جزء ٣ صفحة ٢٤٥ نقلاً عن المبرد محمد بن يزيد النحوي وقد شهدها كما قال في خروجه من بغداد الى واسط في «دير هرقل» الذي كانت تحبس به المجانين . ولذلك وضعناها بين قوسين لانها منقولة حرفيًا

فقال سليم يا للعجب وهل روحه في يده حتى يطلقها حين يريد . فقال كليم هذه قصة محزنة عن المجانين . وقد شهدتُ ايضاً حادثة اخري ولكنها مضحكة . الا انها تدل ايضاً على ذكاء هذه الطبقة التي اذا طمس الجنون عقلها فانه يبقي على نباهتها وحدة ذهنها . وتفصيل الخبر انني كنت ذات يوم ماراً بقرية القلمون الاسلامية الكائنة على شاطىء البحر تحت دير البلمند وقلحات فرأيت اجتماعاً عظيماً خارج القرية فسألت ما الخبر فعلمت ان هنالك معتوهاً يضحك الاهالي منه ويجوزون له ما لا يجوزونه لسواه . وكان هذا المعتوه « يجدُّ ليجد السبيل الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) . وكان يركب قصبة في كل جمعة يومي الاثنين والخميس . فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة . فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان فيصعد تلاً وينادي باعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون . اليسوا في اعلى عليين . فيقولون نعم . قال هاتوا ابا بكر الصديق . فاخذ غلام فاجلس بين يديه . فيقول جزاك الله خيراً ابا بكر عن الرعية فقد عدلتَ وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة اذهبوا به الى اعلى عليين . ثم ينادي هاتوا عمر فاجلس بين يديه غلام فقال جزاك الله خيراً ابا حفص عن الاسلام فقد فتحت الفتوح ووسعت الفيء وسلكت سبيل الصالحين وعدلت في الرعية اذهبوا به الى اعلى عليين بحذاء ابي بكر . ثم يقول هاتوا عثمان . فاتي بغلام فاجلس بين يديه فيقول له خلطت في تلك السنين ولكن الله تعالى يقول خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم . ثم يقول اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليين . ثم يقول هاتوا على ابن ابي طالب . فاجلس غلام بين يديه . فيقول جزاك الله عن الامة خيراً ابا الحسن فانت الوصي وولي النبي بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر وانت ابو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة اذهبوا به الى اعلى عليين الفردوس . ثم يقول هاتوا معاوية فاجلس بين يديه صبي . فقال له انت القاتل عمار بن ياسر وخزيمه بن ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي اخلقت وجهه العبادة . وانت الذي جعل الخلافة ملكاً واستاثر بالفيء وحكم بالهوى واستبطر بالنعمة وانت اول من غير سنة رسول الله ونقض احكامه وقام بالبغي اذهبوا به فاوقفوه مع الظلمة . ثم قال هاتوا يزيد . فاجلس بين يديه غلام فقال له ... انت الذي قتلت اهل الحرة وابحت

---

(١) كذلك هذه الحادثة منقولة عن العقد الفريد الجزء ٢ الصفحة ٣٢٩ حرفياً وهي مروية عن العتبي عن ابي عبد الرحمن بشر وقد حدثت في زمن المهدي

المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله وتمثلت بشعر الجاهلية

ليت اشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسيناً وحملت بنات رسول الله سبايا على حقائب الابل · اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار · ولا يزال يذكر والياً بعد وال حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال هاتوا عمر فاتي بغلام فاجلس بين يديه · فقال جزاك الله خيراً عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته والنت القلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق اذهبوا به فالحقوه بالصديقين · ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى ان بلغ دولة بني العباس فسكت · فقيل له هذا ابو العباس امير المؤمنين · قال: فبلغ امرنا الى بني هاشم · ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً » (١) فقيل له و بعدُ : فقال اين امويو الاندلس · فرفع اليه غلام · فقال له : ايه عبد الرحمن الداخل ذهبت تخرق خرقاً في الاسلام وتنشيء خلافة جديدة وسلطنة كبيرة لم تحسن انت وقومك الدفاع عنها · اذهبوا به الى النار · ثم قال اين الفاطميون · فرفع اليه غلام · فقال لقد الهتم امراءكم واضعفتم الاسلام بشقه شطرين · خذوهم · فقيل له و بعدُ · فقال بعدُ ماذا · فقيل آل عثمان · فالتفت يمنة و يسرة ومدّ لسانه وحك راسه وهمّ بالكلام · فصاح به صائح : باب السجن مفتوح · فضحك المعتوه وقال : اما بنو عثمان فاننا نؤجل الحكم عليهم · فضحك الجميع وانصرفوا

فقال سليم حقاً ان امر هذا الرجل غريب فانه مع جنونه يصف كل امير الوصف الذي ينطبق عليه كانه من ابصر الناس بالتاريخ · اما صاحبنا مخلوف فانني ارى من القسوة ان نتركه في هذه الحالة ولذلك عزمت على معالجته لعلي اردّ عليه صوابه

---

* ١ * الى هنا انتهت رواية العقد الفريد

الفصل الرابع

﴿ الحدث ﴾

«احد اغنياء اميركا العظام فيها»

المذاهب والاديان · مريض لا اكرم منه · شهامة فروي · مرض الوطن

وطوى الفارسان بالحديث المسافة بين عين السنديانة والحدث · ولما وصلا الى هذه القرية دخلا اليها منقبضي الصدر لانهما كانا يعلّلان النفس بان يشاهدا في اعالي الجبل مناظر ابهى واجمل · وهذا شأن كل من يتصوّر شيئاً جميلاً قبل معرفته فانه قلما تكون صورته الحقيقية مساوية لصورته الخيالية خصوصاً اذا كان المتصور شديد الخيال · واشد الناس خيالاً وارقاهم تصوراً واسلمهم ذوقاً من لا يرى في صور الموجودات ــ مهما كانت عظيمة نفيسة ــ صورة تفوق او تساوي صورتها التي ارتسمت في خياله قبل ان يراها

وفي الحقيقة ان جمال الحدث لا يظهر للداخل اليها لاول مرة بل تجب الاقامة فيها يومين او ثلاثة لادراك محاسنها · فهي قرية صغيرة قائمة على قمة اكمة في جبة بشري مطلقة للهواء والنور من جهاتها الاربع · فيظهر ان الذين بنوها لم يرهبوا الزوابع والرياح والثلوج في تلك الاعالي ولذلك لم يخفو قريتهم في ظل اكمة مرتفعة كقرية «قنات» القريبة منها الى الجنوب الغربي ولا بنوها في سفح جبل كاهدن التي تقابلها في الشمال ولا في قلب وادٍ كحصرون في الشرق · بل هم قصدوا بها على ما يظهر مصادمة تلك العناصر الطبيعية في تلك الاعالي التي يعممها الثلج ويغطيها الضباب نصف سنة تقريباً · وهذا ما جعل هواءها اجود الاهوية واجفها واجتذب اليها المرضى للاستشفاء فصاروا يفضلونها على سواها

ولما دخل سليم وكليم الى القرية كان اهلها في هياج واضطراب وبعضهم يتراكضون الى منزل قائم فوق حرش صغير بجانب القرية الى الجنوب الغربي · فقال كليم ياجرجس استخبر لنا الخبر · فسأل جرجس احد الاهالي فاخبره ان بعض الاميركان يرومون استئجار بيت في القرية ولكن في الاهالي فريقاً لا يريد تأجيرهم لانهم بروتستنت يحثون الناس على ترك مذهبهم الماروني الى المذهب البروتستنتي · فضحك سليم لما علم بسبب هذا الاضطراب وقال لرفيقه : ان هذه الخلافات في المذاهب والاديان تتبعنا حتى اقاصي البلدان · ثم سأل سليم جرجس · ما رأيك ياجرجس في هذا هل يجوز لهم ذلك ام لا

يجوز . فاجاب جرجس . الحق اقول لك يا معلمي ان الاهالي لا يريدون تغيير مذهبهم الذي ربي عليه اباؤهم واجدادهم وهم يفدونه بدمائهم سواء كانوا في الكورة بناحيتنا او في الجبة بهذه الجهات . فاجاب سليم مازحاً . ولكن لماذا لا تصنعون انتم في نواحي الكورة ما يصنعه اهالي الجبة من طرد الاميركان فانكم قبلتموهم وقد فتحوا عندكم بضع مدارس . فاحتار جرجس في الجواب ثم قال . اهالي الكوره روم يامعلمي واهالي الجبة موارنه . فضحك سليم وكليم لانهما ادركا معنى كلام جرجس . وقال سليم انا ماروني يا جرجس وكن على ثقة انني اكره الاساءة حتى للمجوس . ولكنك قد جهلت السبب الحقيقي فاعلم ان لذلك اربعة اسباب (الاول) ان اهل الجبة احرص من اهل الكوره على استقلالهم وارسخ منهم قدماً في الدفاع عن حريتهم . وما برح اهل الجبال اشد استمساكاً بحريتهم المطلقة من اهل السهول . وهم يعتبرون مذهبهم الديني من جملة عواملهم وحاجاتهم الوطنية (والثاني) ان لرجال الدين عليهم سلطة عظمى خلافاً لرجال الدين في الكوره وذلك لما للهيئة البطريركية الدينية من النفوذ الخصوصي في سياسة الجبل (والثالث) ان فرنسا التي تحمي هذه السلطة الدينية يطيب لها ان تُبعد ما امكنها كل اجنبي يروم مخالطة الاهالي واستمالتهم وعلى الخصوص البعثات الدينية الغير الفرنسوية (والرابع) ان الكورة تابعة لاسقفية طرابلس دينياً والروم والاميركان في طرابلس على شيء من الاتفاق . فكيف يستطيع اهل الكوره ان يعاندوا الاميركان ما دامت هيئتهم الدينية في طرابلس مسالمة لهم . — فقال كليم حينئذ وقد ضجر من هذا الكلام لله ما اصبرك على البحث في هذه الهنات

وفي هذا الحين وصل الجوادان الى المنزل الذي كانا يقصدانه في القرية وهو اعلى المنازل في الجنوب وآخرها . وكان اهل المنزل في النوافذ ينتظرون الضيفين ويشاهدون اضطراب الاهالي وصياحهم حول المنزل الذي تقدم ذكره

وكانت العائلة المضيفة في هذا المنزل عائلة صديق لسليم وكليم يُدعى الخواجا امين وكان مريضاً وهي مؤلفة من امين المريض واب له في السبعين من العمر وام في نحو الستين . وكان امين مريضاً بعلة الصدر المشهورة التي كثرت في سوريا ولبنان في هذا الزمان وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر انقضى عليه ثلاث سنوات بهذه العلة فلم ينجع بها دواء ولم يبقَ لها علاج عند الاطباء غير الاقامة في الهواء النقي الجاف في اعالي الجبال . وكان امين وحيد والديه الشيخين وقبلة آمالهما ولكن المرض لا يعرف رحمة ولا يرعى حرمة . وكان ابواه في يأس شديد من حالته يبكيان الليل والنهار على وحيدهما الشاب الذاهب عنهما تاركاً

اياهما في آخر العمر فريدين وحيدين في هذه الحياة · الا انهما مع حزنهما المتصل في السر كانا يظهران امام المريض كل سرور وبشاشة · وكذلك كان المريض امامهما · فانه كان عالماً بعلّته التي كانت تجره الى الموت شيئاً فشيئاً ولكنه كان يحتملها بلا ضجر ولا شكوى لئلا يزيد في عذاب الشيخين اللذين كانا يعتنيان به · ولم يرَ احد قط صبراً على مرض كصبر هذا المريض الكريم وممرّضيه الشيخين

ولما دخل سليم وكايم عليه كان امين ممدداً في سريره لا يقوى على النهوض · فابتسم لهما مسلماً · اما هما فلم يقنعا بهذا الابتسام بل تقدّما منه ليصافحاه بهزّ اليد · فلما رآهما يمدان يديهما نحوه سحب يده واخفاها تحت اللحاف وقال لهما بدمع في عينيه : لا تتعباني بالسلام عليكما فانني في غاية الضعف · فتفرت الدموع حالاً الى عيني سليم وكايم لعلمهما ان ذلك المريض العزيز لم يخفِ يده الاّ فراراً من ان يعديهما من دائه · فيا ايها المرضى الذين يشكون من فرار الناس منهم خوفاً من العدوى · ويا ايها المصابون بامراض مزمنة يقضون اوقاتهم بالتضجير والتألم والتحسر : تعلموا هذا الشعور اللطيف والصبر الجميل من هذا المريض الكريم ·

وما جلس كايم وسليم يستريحان بعد تعب الطريق حتى اشتدّت الضوضاء في القرية وعلا الصياح فهرعا كلاهما الى النافذة واطلاّ منها ثم قال كليم لامين : لم نفهم جيداً سبب هذا الاضطراب · واذا بصاحب المنزل داخل · فسأل له امين كيف انتهت المسالة يا ابامرعب · فقال ابو مرعب حقاً انهم تجاوزوا الحدود · وقد عزمت ان اذهب وادعو اولئك الضيوف الى منزلي هذا وادعهم يقيمون في الجانب الآخر فما قولكم · فقال له امين احسنت يا ابامرعب وهكذا فلتكن الشهامة · فقال ولكنني اريد ترجماناً بيني وبين الخواجات فهبّ سليم وكايم وقالا نحن نرافقك

وبعد خمس دقائق وصل ابو مرعب مع سليم وكايم الى المنزل الذي كان النزاع عليه فوجدوا حوله نحو عشرين رجلاً من اهل القرية وبضع نساء وعدة اولاد وامام المنزل ثلاثة بغال عليها حوائج السفر وبجانبها ثلاثة من الاميركان وترجمان وخادم

وكان ابو مرعب في نحو الخمسين من العمر وهو رجل كبير الجسم كثير السمن قوي العزم لا يهاب الموت اذا تمثل له في شخص انسان · وكان مشهوراً عنه انه حارب مع يوسف بك كرم وكان من اشد اعوانه حتى ان يوسف بك سماه « كلة مدفع » اشارة الى استدارة جسمه وقوته · فلما وصل ابو مرعب الى المتجمهرين دخل بينهم مع رفيقيه واستفهم منهم عن سبب الاضطراب والصياح · فعلم منهم ان ذلك الجمهور كان مقسوماً قسمين ففريق كان

بقول ليس من آداب الضيافة ان نمنع الاجانب من الاقامة في قريتنا والا سبّنا الناس حتى اهل القرى المجاورة . وكان في هذا الفريق صاحب المنزل نفسه . وفريق آخر كان يقول: نحن لا نبعد هؤلاء الضيوف لانهم بروتستنت فقط بل لان فيهم رجلا مسلولاً اذ نخاف على قريتنا من العدوى

فرفع حينئذ ابو مرعب صوته وقال مخاطباً الفريق الذي كان يقاوم : يا شباب هل هذا المنزل منزلكم . فاجابوا كلا . فقال وهل لصاحبه الحق في اقفاله او هدمه او تلعيب القرود فيه ام لا . فاجاب احدهم وكان اجراءهم . نعم له الحق في ذلك ولكنه ليس له الحق في ان يضع فيه شيئاً يضر باهل القرية كلهم . فقال ابو مرعب وقد بدا الغضب في وجهه . وما هو هذا الشيء يا ابن طنوس . فقال « المرض » (١) فصاح به الشهم ابو مرعب : هل انت بدون دين يا ابن طنوس حتى تضطهد وتطرد المرضى والضعفاء الذين اوصت ديانتنا بمساعدتهم وزيارتهم . ولماذا لم تطرد القرية اباك لما مات منذ سنتين بعلة الجذام

فسكت ابن طنوس ولكن شاباً بجانبه اجاب : هل الغريب كالقريب يا ابا مرعب . فقال ابو مرعب عافاك الله يا ابن سركيس فانك نطقت بالحق . فانتم اذاً تريدون اضطهاد هؤلاء الضيوف لانهم اجانب وبروتستنت لا لحفظ صحة القرية . فانا اخبركم انني الآن آخذهم الى بيتي وكل من تحدثه نفسه بمنعي فليتبعني

ثم اندفع ابو مرعب الى البغال فاخذ باحدها ومشى في المقدمة يتبعه المسافرون وبجانبه كليم وسليم يعجبان من كرم اخلاق هذا القروي

اما المسافرون الاميركان فانهم كانوا في اثناء ذلك يضحكون وقد افهمهم ترجمانهم كل ما جرى فاجابوا يس يس اي انهم رضوا بالاقامة في منزل ابي مرعب . الا انهم لم يشكروه على ذلك شكراً خصوصياً لانهم لم يعرفوا قيمة العمل الذي عمله معهم ذلك الرجل الكريم

ولما استقر بهم المقام في بيت ابي مرعب نادى سليم وكليم ترجمانهم وكان من تراجمة بيروت قدم معهم لهذا الغرض . وبعد ان تعرفوا به سألوه عن رفاقه وقصتهم فاخبرهم ان هؤلاء الثلاثة الاميركان هم من حواشي اميركي كبير قادم للسياحة في جهات الارز . فسأله سليم وما اسمه فاجاب الترجمان . اسمه « مستر كلدن » فصاح سليم مستر كلدن احد اغنياء اميركا العظام . فقال الترجمان نعم فان زوجته مريضة وقد حضر معها للسياحة

« ١ » متى قيل المرض على الاطلاق يعنون به هناك داء السل

في اعالي لبنان · وقد اشار عليهم اطباء بيروت ان يتخذوا الحدث محطة لهم اذا اعجبتهم لان هواءها اجف الاهويه ومنها يزورون كل الاماكن الجميلة التي بجوارها · وهذا ما جعلنا نتقدمهم وننتظرهم

فقال كليم اذاً لستم مرسلين اميركيين كما ظن اهل القرية · فضحك الترجمان وقال كلا · فقال كليم ومَن مِن رفاقك المصاب بداء الصدر · فضحك الترجمان ايضاً وقال لا اعرف احداً مصدوراً بينهم ولكن لون احدهم ضارب الى الاصفرار فحسبوه مصاباً او انهم ادعوا ذلك تأييداً لحجتهم · فضحك سليم وقال لا بأس نحن نحمد هذه الصدفة التي جعلتهم قريبين منا لاننا سنتعرف بالمستر «كلدن» ولا شك · فقال الترجمان وهل تحبون التعرف برجال بطانته · فاجاب سليم · ذلك ما نتمناه

وفي المساء زار سليم وكليم المسافرين الاميركان فاحسنوا استقبالهم وقد سروا لمصادفتهم اديبين مطلعين يحادثانهم بلغتهم حديثاً مفيداً عن المكان السكان · وفي اثناء الحديث سأل سليم احدهم: بلغنا من الترجمان ان مسز «كلدن» مريضة وهذا سبب سياحتها مع زوجها المكرم ولكن ما مرضها · فضحك المخاطب واجاب «مرض الوطن» فاستغرب سليم وكليم ذلك فقال صاحبهما: نعم انا اخبركم الآن شيئاً جديداً وهو يسركما ولا شك · فان مسز كلدن اصلها من بر الشام · ولم تنفك عن الاشتياق الى وطنها الاول · فجاء بها المستر كلدن في هذا العام لعل صحتها تعود اليها في هذه السياحة التي هي متعبة وان كانت جميلة

الفصل الخامس

قصة مجنون ليلى

وهل اخطأت حبيبته ام اصابت في سفرها

وفي ذلك الليل نام كليم وسليم نوم الهناء بعد تعب السفر · ونهضا في صباح اليوم التالي نشيطين مسرورين · الا انهما شعرا قبل شروق الشمس بشيء من البرودة لم يتعوداه في اغسطس لقياسهما الجبل على السهل · لكن لما طلعت الشمس وما زجت ذرات نورها الحار ذرات الهواء البارد شعرا بارتياح شديد لم يشعرا بمثله في حياتهما كلها · ومنذ هذه الساعة بدأت الحدث تكون جميلة في عيونهما

ولما تعالت الشمس فوق المشرق واشتدت حرارتها قليلاً انتبه امين من النوم واوعز الى ابويه ان يستعدا للذهاب الى حرش الصنوبر القريب من القرية ليتناولوا طعام الصباح هناك مع ضيفيهما . فبعد نصف ساعة سار كليم وسليم نحو الحرش وركب امين حماراً لانه كان عاجزاً عن المشي لضعفه وسار ابواه وراءه . والمسافة بين القرية والحرش نحو ٤ او ٥ دقائق . وهذا الحرش قائم بين القرية القديمة وبضعة منازل جديدة بنيت وراءه الى الجنوب وهو مغروس فوق اودية مختلفة تنفرج من الحدث الى السهل فيُرى من ورائه بحر الكورة والبترون وما وراءه من الافق .

فجلس الرفاق هناك في اجمل مجلس وتناولوا طعام الصباح . وقد جعل امين مجلسه بعيداً من مجلس صديقيه وفصل طعامه عن طعامهما . فكان هذا الشعور اللطيف منه يزيد صديقيه رغبة في محو ذلك الاثر من نفسه . ولكن وااسفاه ما الفائدة من محو ذلك الاثر من النفس ما دام باديًا في الوجه . فان امينًا كان في تلك الجمعية التي كانت تتمتع بالصحة والعافية في ذلك المكان المشرف على مناظر الجبال الجميلة والمعطر الهواء برائحة الصنوبر الطيبة - عبارة عن شبح وخيال . فان العلة الهائلة اكلت وشربت لحمه ودمه . والهزال افنى قواه واخمد نار عينيه وصبغ وجهه اللطيف بلون الموت . ولم يبقَ من قوة لتلك الروح الصبورة في ذلك الجسم النحيف الذي صار كاجسام الاولاد - سوى قوة الابتسام بشفتيه الرقيقتين تحت شاربيه الاشقرين الدقيقين اللذين صارا لا يظهران كثيرًا لامتزاج لونهما بلون الوجه . فبالابتسام فقط كانت تظهر حياة امين وعواطفه وارادته . وكان يجود بالابتسام دائمًا اظهارًا للقوة وايناسًا لجلاسه . فهنا نقول مرة ثانية ايضًا : ما رأى الممرضون قط مريضًا شجاعًا صبورًا مثل الفتى امين . والعجب من نفس قوية صبورة كهذه النفس كيف استطاعت العلة ان تقوى عليها

وكان لا ينغص عيش سليم وكليم شيء في ذلك المكان الجميل سوى هذه الافكار التي كانت تتردد عليهما . ورغبة في طردها وتسلية المريض دخلا في الحديث معه . فقال كليم الا تذهب معنا الى الارز ايها الصديق . فضحك امين وقال انتَ ترى انني لا اقدر على الركوب من القرية الى هنا . فقال سليم . لا تبالغ فانك بخير والحمد لله وانك تستطيع الذهاب معنا الى الارز اذا أردته . ولك علينا اذا سرتَ معنا ان نريك « فرجة » لم ترها في حياتك . فقال امين وما هي . فقال سليم نريك مجنون ليلى . فقال امين ومن هو مجنون ليلى . فقال سليم هو رجل جنَّ من الحب . فصاح امين : لعلك تريد بهذا الرجل المسيو مخلوف . فدهش سليم وكليم وقالا : هل تعرفه . فقال امين هذا امر بسيط فان كل الناس هنا يعرفونه

و يعرفون قصته · فقال سليم وهل تعرفها بالتفصيل فقال نعم ولكن اين شاهدتموه فقص عليه سليم كيف شاهدا مخلوف في عين السنديانة وما جرى له وكيف وعدهما بان يقابلهما في الارز · فقال امين : اظن هذا كل ما تعرفانه عنه اما انا فانني اقص عليكما قصته من اولها الى اخرها كما سمعتها من عارفيه واليك تفصيلها

ان اسم مخلوف الاصلي (يعقوب درمان) وهو شاب اديب من بلده صور وكان منذ عشر سنوات مكبًا على الدرس استعدادًا لفن المحاماة · فبينما كان ذات يوم يطالع بعض دروسه على شاطيء البحر واذا به يسمع صراخًا وعويلاً فركض فابصر خادمة تنادي على سيدة لها بين الامواج تكاد تغرق فالقى نفسه حالاً باثوابه في البحر وانقذ السيدة · وكانت هذه السيدة فتاة في نحو الثامنة عشرة من العمر وهي كريمة تاجر كبير في صور · وقد رامت الانتحار غرقًا لاسباب مجهولة · فلما انقذها يعقوب ارسلها الى بيتها وكانت مغشيًا عليها · فكاد ابوها يموت من حزنه ولكن الحياة عادت اليها · ومنذ ذلك اليوم احبها يعقوب درمان حبًا شديدًا يقرب من العبادة ومالت الفتاة اليه لانه انقذ حياتها · لكن الاقدار عاكستهما بعد ذلك · فان اباها على ما يقال توفي في ذلك العام وقد خسر جميع امواله وانحطت كرامته بين قومه بعد ان كان عزيزًا بينهم و بذلك يتمت ابنته وحدها اذ لم يكن في البيت غيرها لوفاة امها · وكان يعقوب درمان فقير الحال ايضًا · فرأت الفتاة انها اذ اقترنت به ازدادت سوء حال على سوء حال · وكانت عزيزة النفس شديدة الانفة لانها نشأت في الترف والغنى والدلال فكرهت ان تقيم ذليلة فقيرة في بلدة كانت فيها العزيزة المبجلة · فغافلت حبيبها يعقوب وفرّت مسافرة مع احدى البواخر التي تمر على صيدا وتركت له ورقة تقول له فيها « انسني واسلني بعد الآن » و يظهر ان دماغ يعقوب ضعيف من فطرته فلم يقوَ على تحمل هذه الصدمة فجُنَّ من يومها

فقال سليم ولكن كيف سافرت الفتاة وحدها الى بلاد لا تعرفها ؟ فاجاب امين لا تسل عن ذلك فانها نشأت في مدارس الاميركان وانت تعلم انهم يربون البنات في مدارسهم على الجرأة والاقدام والاستقلال · وهو امر احيانًا يكون نافعًا واحيانًا يكون ضارًا

فضحك كليم وقال لا ريب اننا اذا رأيناه نحن في هذه الحادثة نافعًا فان الخواجه مخلوف يراه مضرًا جدًا لانه فقد به حبيبته وعقله

فقال كليم ولكن عندي ان الفتاة لم تخطيء اذ لا اصعب من معيشة الانسان محتاجًا الى الناس في بلدة كان فيها من قبل غنيًا عنهم · فان دناءة الشامتين ولؤم المنتقمين ووقاحة

حديثي النعمة الذين يحلون محل ذلك الانسان بعد سقوطه امور لا تحتملها النفوس

فقال امين بهدوء ورزانة : ما للانسان وكلام الناس انما عليه ان يعيش بهدوء مستوراً واذا كان في الناس قوم « اردياء » يشمتون وينتقمون ففيهم قوم « طيبون » يؤانسون ويعزون . فقد كان على الفتاة ان تبقى ولا تسافر بهذه الصورة الشنيعة.

فقال كليم ضاحكاً : لو سمعك مخلوف الآن لاعطاك طربوشه من فرحه

فقال امين ضاحكاً : وما نفعي منه فان طربوشه قذر — فضحك الجميع لهذا الجواب

الفصل السادس

حديث في حرش صغير

التصيف في اعالي لبنان فوق بيروت او طرابلس بدل سويسره واوربا . هل يجوز للهيئة الاجتماعية عزل المرضى . السل داء الانسانية الاسود . آخر الآراء والابحاث في اسبابه وعلاجه . كرنيجي الاول

وقد طابت الاقامة لسليم وكليم في هذا الحرش الصغير فصارا في كل يوم يقصدانه مرة او مرتين للاستظلال به من حر الشمس . ولكنهما لم يكونا يجلسان في الظل ربع ساعة حتى يبردا فينهضا الى الشمس فيسخنا فينهضا الى الظل وهكذا على التتابع . وكانا يصرفان الوقت هناك بالحديث ومطالعة اطايب الكتب

فبعد ان مضى عليهما بضعة ايام في هذه المعيشة نظرا الى نفسيهما ذات يوم وهما في ذلك المكان فاذا بهما قد صار جسمهما ممتلئاً قوة وصحة وتوردت وجناتهما واكتسيا من هواء الجبال ثوباً زاهياً غطى ثوب الاصفرار والضعف الذي كستهما به المعيشة المدنية . وكانا ينظران الى نفسيهما في المرآة ولا يصدقان . فالتفت سليم الى كليم وقال : ان الذين يعيشون في السهول والمدن في الشام وغيرها يخطئون اشد خطاء اذا كانوا لا يصعدون مرة في العام الى جبال كهذه الجبال لتجديد قواهم ودمائهم . فاجاب كليم انا موافق على رأيك بعد ما شاهدته في صحتي من التحسن . تالله انني احسب نفسي انني كنت ميتاً وبعثت . فانني آكل ولا اشبع . واشرب ولا اروى . وامشي ولا اتعب . واحياناً اخشى لنشاطي وخفة جسمي ان اطير في الهواء . فضحك كليم وقال : ما رأيك باصحابنا في الشام وفي مصر الذين يقصدون جبال سويسره وبلاد اوروبا في الصيف ويتركون هذه الجبال التي فيها المعيشة ارخص مايكون.

فقال كليم مَن جهل شيئاً لم يحفل به · فهم يجهلون فضائل هذه الجبال · هذا عدا عن ان طريقها وعرة (١)

وفي هذا الحين وصل الى الحرش شابان · فصاح كليم · بهما : اهلاً بالخواجه فاضل والخواجه حنانيا · ثم جلس الشابان بازاء رفيقهما واخذا في الحديث معهما · وكانا من رفاق كليم وابناء وطنه وهما مصيفان في القرية ·

وكان حنانيا شاباً تدلُّ هيئته على « البساطة » ولكن في الزوايا خبايا · وكان بلحية ضاربة الى الشقرة وهو كثير التنحنح كلما فاه بعبارة · وكان رفيقه فاضل يكثر من ممازحته ومداعبته وكذلك كليم · وقد كان حنانيا يُسر بهذه المداعبة على ما يظهر لانه لم يكن يستاء منها ولو جرحته احياناً · وكثيرون وفي جملتهم المؤلف كانوا يعتبرون ان هذا الامر ناشيءٌ بالاكثر عن « طيبة » قلبه

اما فاضل فقد كان شاباً هادئاً يحب الجدّ كما يحب المزاح وقد كان في عينيه ما يدل على صفاء قلبه · وفي اساليبه وكلامه وسكوته ما يدلُّ على انه ربي في عائلة ذات نعمة · وكان من المشهور عنه انه شديد الاخلاص والرغبة في نفع غيره فلم يكن احد يساله شيئاً في طاقته ويقعد عنه ·

ولما دار الحديث بين الرفاق الاربعة قال فاضل ان رفيقنا حنانيا قد ابتاع اليوم كرماً · فقال حليم وكيف ذلك · فقال فاضل : جرت عادته انه كلما رام ان يا كل عنباً يقصد هذه الكروم الممتدة امامنا من القرية الى حرش الارز الصغير المشرف عليها وكلما شاهد عنقوداً جميلاً جلس كالثعلب بجانبه وتناول منه انضج حبوبه واكبرها · ولا يزال يفعل ذلك حتى يشبع · ففي هذا الصباح بينما كان « يفطر » بهذه الطريقة نظره (ناطور) الكرم فصاح به واسرع اليه فاجابه صاحبنا بكل « برودة » قلب ماذا تريد · فقال له (الناطور) اخرج من الكرم · فقال له بغضب ولماذا · هل هو كرمك · قال بلا شك · فقال له صاحبنا ارني (الحجة) التي بيدك لاتحقق ذلك ـ ولعمري ان هذه خير الطرق للشبع من العنب بدون دفع بارة واحدة ·

فقال كليم اذاً لا يظلم اهل القرية كثيراً ضيوفهم بمعاندتهم والرغبة في التخلص منهم

« ١ » كانت كذلك في زمن هذه القصة اما اليوم فالمركبات تسير الى اعالي الجبة كما تقدم · فعسى ان يكون في هذا الكلام ما يجبب الى كرام المصريين والسوريين التصييف في اعالي لبنان فوق بيروت او طرابلس بدل سويسره واوربا

اذا كانوا كلهم « على نسق » صاحبنا حنانيا

فقال حنانيا انا لست مسلاً ولا بروتستنت ليستطيعوا طردي فانني قاعدهنا على صدورهم الى ان يحلولي السفر . ثم فلنترك الآن المزاح هل بلغكم عزم اهل القرية على التجمهر لاخراج المرضى من قريتهم

فقال سليم . وما قولكم في قصدهم هذا الا ترون فيه شيئاً من الحق

فاجاب فاضل بحدة : عفواً عفواً . ان لاهل القرية الحق في ابعاد المرضى عنهم كما ان للمرضى وخصوصاً المصدورين الحق في اختيار الحدث للاقامة فيها الان هواءها اجف الاهوية والاطباء يامرونهم بان يسكنوها . ومن الخشونة والهمجية ان يداس حق الضعفاء ارضاء للاقوياء

فقال سليم فما الحيلة لارضاء الفريقين . اليس هناك يا ترى طريقة جامعة

فقال فاضل كنت افكر منذ مدة في هذا الامر حين سماعي ذلك الخبر فحللت هذه المشكلة . وذلك ان يبنى فوق القرية تحت الارزات التي هناك « مستشفى للمرضى » مؤلفاً من عشرين او ثلاثين غرفة جامعة لكل الشروط الصحية على نسق المستشفيات الصحية للمسلولين في اوربا (سانتوريوم) وحينئذ يجتمع المرضى من تلقاء انفسهم في هذا المستشفى بدل ان ينتشروا في منازل القرية ويخاصموا الاهالي لاستئجارها(١)

فقال كليم لقد اصبت فان هذا خير حل . وحينئذ يكون من حق الاهالي اجبار المرضى على الانفراد بذلك المستشفى . والا فكل مقاومة منهم تعد خشونة وقسوة اذ الارض ليست ارضهم ولا الهواء هواءهم بل هما لله . اي انهما مشتركان بين جميع البشر . واذا لم يقم احد لبناء هذا المكان الصحي فانني اؤكد ان الحدث لا يقصدها في المستقبل غير المرضى فتخسر خسارة غير قليلة

فقال سليم . نعم ان السل آفة هائلة . والناس يرهبونه كما يرهبون نيران جهنم

فقال حنانيا ولكن من اين تنشأ هذه الآفة المهلكة التي كثرت في بلادنا . ثم اليس من دواء لها

فقال سليم لقد اطلعت منذ اسبوعين على آخر الابحاث والآراء في هذه الافة ومنها يظهر ان السل يصاب به نصف البشر على الاقل . فبعضهم يشفى منه دون ان يدري به(١)

« ١ » بني هذا الراي على المبداء الذي يجري عليه اليوم جمهور الاطباء والشارعين في الغرب وهو انه ليس للهيئة الاجتماعية ان توجب على الطبيب التصريح بعلة مرضاه لتعزلهم الحكومة عن الناس الا متى بنت لهم الحكومة مستشفيات صحية مجانية يجدون فيها كل عناية

« ١ » عرف ذلك من تشريح الجثث في مستشفي باريز

وبعضهم يموت . ولذلك سموه « داء الانسانية » وفي فرنسا وحدها فقط يموت به في كل عام ١٥٠ الف شخص . اما سبب هذه الآفة فهو الافراط في كل شيء : الافراط في السكر الافراط في الزواج الافراط في التعب والهم الافراط في السهر وسوء المعيشة وقلة الغذاء وفساد الهواء الخ . . ويقولون انه ينتقل بالوراثة وهذا رأي ضعيف اذ جلّ ما تفعله الوراثة اعطاء الولد بنية ضعيفة . فاذا كان الاهل حكماء استطاعوا تقويتها وانقذوا الولد . والا سقط . فسقوطه اذاً يكون لا من وراثته داء السل بل من وراثته ضعف البنية . وكأنَّ آفة السل تمثال اسود للشقاء والعذاب منصوب في ساحة تؤدي اليها كل طرق الشقاء والغلو والافراط والفساد

« اما دواء هذا الداء فبسيط جداً . وانا احب ان يُنادى على السطوح على مسمع من جميع المرضى المساكين ان داءهم قابل للشفاء خلافاً لما بلغهم . بل ان شفاءه اسهل من شفاء الحمى التيفوئيدية والجدري وغيرها — لكن على شرط ان يُتدارك من اول ظهوره . فقولوا للمرضى به لا تحزنوا ولا تخافوا ان داءكم بسيط اذا احسنتم مداواته . ولكن اذا اهملتموه قضي عليكم لا محالة . وان قيل كيف تُحسن مداواته فالجواب لا دواء له غير شيء واحد وهو « الهواء النقي والغذاء الكافي » اما ما يُقال عن العلاجات والادوية فهو كله تدجيل في تدجيل . وكثيراً ما تناول المصدورون ادوية فنفعتهم شهراً او شهرين ثم انتكسوا بعد ذلك من فعل تلك الادوية وانتهى أَجلهم (١) فترك الدواء اذاً هو كل الدواء . ومعرفة وقت ابتداء الداء هي السرُّ الوحيد في الشفاء . ولا ينبغي للمسلول ان ييأَس من شفائه ابداً فان بعض الاطباء داوى بعض المرضى بالسل ٢٠ سنة وكانوا ينفثون الدم مع البلغم ومع ذلك رزقوا اولاداً وعاشوا عمراً طويلاً . ولكن المسلول العازب عليه ان لا يتزوج وان تزوج ولم يكن « حكيماً » غلبه داؤه . اما النساء المسلولات فالحبل فقط يضرهن ضرراً شديداً ويغلّب داءهن عليهن . ومن ذلك كله يظهر ان الاعتدال وحسن المعيشة في الهواء النقي الجاف في الجبال مع قليل من الرياضة الخفيفة هي الدواء الوحيد الشافي من هذا الداء

وما اتى سليم على هذا الكلام حتى نُظر ابو مرعب راكضاً نحو الحرش ينهب الارض نهباً . فاشرأَبت اليه الاعناق وقال كليم خيراً ان شاء الله ما وراء ابي مرعب . ولما وصل ابو مرعب صاح وهو يلهث تعباً هل بلغكم الخبر . فقالوا ماذا . فقال قد وجدنا كنزاً . فقال كليم وما هذا الكنز . فقال ابو مرعب لاهثاً . كنز كنز عظيم . فقال كليم فاخبرنا ما هذا

---

* ١ * هذه المعلومات عن السل ماخوذة من رسالة مطولة حديثة للدكتور دارنبرج وهي من اهم ما قيل في هذا الموضوع

الكنز. فجلس ابو مرعب وقص عليهم ما يلي

كنت الآن هناك مع ترجمان الجماعة واذ كنت اسأله عن المستر كدن. نكدن كيف يلفظ اسمه ؟ فاجاب كليم « كلدن » فقال تمام « كلدن » فاجابني الترجمان انه غني عظيم تقدر ثروته بخمسين مليون ليره. واذ كنت اسأله عن اخلاقه وصفاته اخبرني خبرًا غريبًا. فقد قال لي ان هذا الرجل يخرج في السنة مرة من بيته في شيكاغو الى المدينة وجيبو به ممتلئة باوراق البنك. ولا يزال يوزع منها على الذين يجدهم في طريقه حتى تنفد. فربما وزع مليون فرنك في ذلك النهار. ولذلك يسميه الناس نهار كدن.. نكدن كيف اسمه فقال سليم ضاحكاً « كلدن » فقال ابو مرعب نعم نعم « نهار كلدن » وقد اخبرني الترجمان ان الذي ابتكر هذه الطريقة وحثه عليها شاب مستخدم في محله يدعى « المستر كرنيجي » وكثيرًا ما يرافقه في ذلك النهار. فما قولكم اذا جاء صاحب الملايين غدًا وعلم بانني انقذت رجال حاشيته الا (يفتح يده) و يرينا جوده وكرمه.

فضحك الحاضرون وقال سليم اشير عليك يا عمي ابا مرعب ان تطلب منه ان يصنع « نهار كلدن » مرة في الحدث. فقال ابو مرعب والله هذا رأي في غاية الصواب. ومن نطلب ذلك منه كلمنا. ثم نهض ابو مرعب واسرع ليجتمع ببعض رفاقه من اهل القرية و يتفق معهم على هذا الطلب

فلما غاب عن اصحابنا التفت كليم الى حنانيا وقال ماذا تصنع يا حنانيا اذا صنع المستر كلدن « نهاره » في الحدث

فاجاب فاضل عن حنانيا : اعوذ بالله. ان صاحبنا حنانيا يقطع نفسه عشرين قطعة في ذلك اليوم ليصادفه صاحب الملايين عشرين مرة

وكان حنانيا يضحك في اثناء ذلك وهو ساكت.

ولما عاد الاصحاب الاربعة من الحرش وجدوا خمسين قرويًا جالسين حول ابي مرعب تحت بيته وهم يبحثون في طريقة يقنعون بها المستر كلدن ان يصنع « نهاره » في الحدث. وقد اخذوا منذ تلك الساعة يلاطفون رجال حاشيته و يكرمونهم احسن اكرام. وما برحت المصالح تغيّر قلوب الناس في كل زمان ومكان

الفصل السابع

لا تريد المرور على بيروت

زوج اميركي وزوجة شرقية · الحسن الاميركي والحسن الشرقي · غلطة فتاة يبكتها ضميرها· كيف احب كلدن امرأته واقترن بها

وفي هذه الاثناء كان المستر كلدن وزوجته وابنتان لهما وحاشيتهما الكثيرة صاعدة عند دير حنطورة في الطريق الموصلة الى عين السنديانة ·

وكانت الابنتان في مقدمة الركب وكل واحدة منهما على جواد ووراءهما امهما على جواد ايضاً يليها الأب على فرسه و بجانبه وكيل اشغاله ووراءهم الحاشية والخيام والبغال تحمل الاثقال

وكان المستر كلدن كهلاً في الخمسين من العمر · وهو جميل الوجه طويل القامة احمر اللون اشقر الشعر متقد العينين بالذكاء الاميركي المعروف وفي كل حركة من حركاته وكل كلمة من كلماته شيء يدل على النشاط والحدة

اما زوجته فقد كانت في نحو الثلاثين · وكانت بيضاء الوجه كالثلج المعمم قمم لبنان سوداء الشعر والعينين رشيقة القوام كغصن البان خفيفة الحركة فوق جوادها الرشيق كانها غزال على غزال

فكان هذا الزوج وزوجته يمثلان ضربي الحسن في العالم· الحسن الاميركي الاشقر والحسن الشرقي الجامع بين اللون الابيض الناصع واللون الاسود الفاحم

والغريب ان ابنتيهما جاءتا واحدة على شكل امها وواحدة على شكل ابيها · وكانت احداهما في التاسعة من العمر والاخرى في السابعة · وكانتا ثابتتين على ظهر جواديهما ثبات الفوارس · ولا عجب في ذلك لانهما ربيتا تربية اميركية

ولما حاذى الركب دير حنطوره كان المستر كلدن في حديث مع امرأته وقد تنحى عنه وكيل اشغاله · وكان يقول لها : لماذا تكرهين بيروت يا اميليا الى هذا الحد· حقاً انني صرت اخجل من قومي فيها لعدم استقبالنا اياهم فاجابت زوجته والحزن بادٍ في وجهها : حقاً انني ندمت ياجورج على سياحتنا هذه · فقهقه المستر كلدن وقال : كيف تندمين الآن بعد ان بكيتِ سنتين على هذه الزيارة · وفي كل يوم كنت تتنهدين وتقولين : هل ارى بلادي مرة قبل ان اموت ؟ فقالت اميليا والدموع في عينيها· لا تمزح يا صديقي في مسألة

كهذه المسالة فان قلبي في غاية الالم . نعم كنت اشتاق في بلادنا الى رؤية البلاد التي ربيتُ فيها ولكني اول ما وصلتُ اليها تغير قلبي فعلمت حينئذ انه قد كتب لي التعاسة على هذه الارض . فانني اذا قمتُ في بلادنا اميركا شعرتُ انني غريبة فيها واذا جئت بلادي الاصلية شعرتُ ايضاً انني غريبة . فشاني شان طائر نسفت الزوابع عشه واستأصلت الشجرة التي كان ياوي اليها فلم يبقَ له أمل في الراحة وان وجد عشاً احسن من عشه الاول وشجرة افضل من شجرته الاولى . وليس معنى كلامي هذا انني غير راضية بحالتي الحاضرة . فانني من فضلك ونعمتك في الف فضل والف نعمة . ولكن ماضيَّ شديد الضغط على نفسي

وهنا انحدرت الدموع من عيني اميليا . فصاحت بها ابنتها الاولى : عدنا الى البكاء يا ماما . اذا لم تسكتي فانني ابكي ايضاً . وقال لها زوجها . الحق اقول لك يا عزيزتي انني لا أعرف سبباً لهذا الحزن واليأس . فانك تعلمين اننا صنعنا كل ما في امكاننا فلم نعثر على اثر لابيك . وقد عرضتُ عليك الف مرة ان ننتقم من اعدائه فكان جوابك ما الفائدة من الانتقام .

فهنا اغرقت اميليا في البكاء وقالت نعم ما الفائدة من الانتقام فانه لا يردُّ لي ابي . ولو عثرت على ابي فربما كنتُ طاوعتك على الانتقام ارضاءً له . لانه تعذب كثيرًا في اثناء حياته . ومن العدل ان يعذَّب معذبوه وان كنت لا احبُّ عدلاً كهذا العدل . ولكن ماذا كان جواب الباحثين عنه في جهات البرازيل

قال لم يجدوا له اثرًا . وانت تعلمين انني نشرت منشورًا في جميع اقطار الارض في الشام ومصر واوربا واميركا وآسيا وافريقيا ووعدت بدفع مليون فرنك جائزة للذي يجد « الخواجه متى حاروم » ويدلنا عليه وها قد مرَّ على هذا المنشور سنوات والوف من الناس يبحثون عبثاً طمعاً في الجائزة . فاعتقدي يا حبيبتي بعد الآن ان اباك الكريم قد توفي الى رحمة الله وسبقنا الى الآخرة . لانه من المحال ان يكون حياً ولا نعثر عليه بعد كل هذا التفتيش . ولا تنسي اننا كلنا ضيوف في هذه الارض وان وطننا الحقيقي فوق . فتعزي ولا تحزني حزن الذين لا رجاء لهم

فاطرقت اميليا برهة تبكي بسكوت . ثم قالت ليس بكائي للموت بل بكائي للغلطة العظيمة التي ارتكبتها . وهذا ما يعذبني ويضغط على نفسي وضميري . فانني تركت ابي في اشد الاوقات عليه حين تخلت عنه الارض والسماء وابتعد عنه الاقربون والابعدون . فكنت اوساهم عليه واجحدهم لجميله لانني كنت اقربهم اليه . وانني اخشى ان يكون قد

مات في الشيخوخة والضعف والفقر والوحدة وهو يلعنني

فهنا رام كلدن ان يصرف فكر زوجته عن هذه التذكارات المحزنة فقال ضاحكاً : اما انا فلا اعتبر سفرك من بلادك الى اميركا غلطة يا اميليا لانني لولا هذا السفر لما التقيت بك وافتتنت بك . فانا اشكرك لتلك الحدة التي حملتك على السفر . ولا يزال يحلو لي ان اتذكر معك اليوم الذي لقيتك فيه في واشنطون . فقالت اميليا مبتسمة دعنا من هذه الذكرى . فقال لا بل دعيني اتكلم بحيائك . فقد خرجتُ في ذلك اليوم لأعمل « نهار كلدن » ومعي المستر كرنيجي كاتم امراري . فبعد ان ذهب نصف ما في جيوبي من الاوراق وصلت الى الساحة القريبة من دار الحكومة فوجدتك سائرة في طريقك مع احدى بنات جنسك . فمددت يدي اليك بورقة قيمتها خمسمائة دولار وقد فعلتْ فيَّ عيناك ما لا يفعله السحر . ذلك انكم انتم الشرقيون لا تعرفون مبلغ التأثير الذي يؤثره فينا الجمال الشرقي الخاص بكم . فكان جوابك انكِ رفعتِ يدكِ ولطمتني على وجهي لطمة ارتني « نجوم الظهر » كما يقولون في لغتك . لانك ظننتِ انني رجلٌ بذيءٌ يقصد اغوائك بماله . فكبر قدرك منذ ذلك الحين في عيني وار يتني بهذا الفعل جمالك الادبي بعد ان رأيت في وجهك جمالك الانثوي . وانتِ تعرفين التتمة . فبالله اخبريني كيف اجترأتِ على لطم رجل قوي مثلي قادر على سحقك بقبضة واحدة

فقالت اميليا تعلمت ذلك من معلمتي في المدرسة فانها قصت علينا يوماً ان احد الوقحين عرض عليها في سوق نيويورك مالاً لمجاوبته بلطمة على وجهه ففرَّ كالهرّ المطرود . فقال كلدن حينئذ رافعاً رأسه افتخاراً : هل من ينكر بعد هذا فضل مدارسنا في الشرق .

وقد سرَّ المستر كلدن من اجوبة زوجته لانه قدر بذلك على صرف افكارها عن موضوعها الاول . ولم يعد يسألها لماذا كانت تكره الاقامة في بيروت والسفر الى صور وصيداء

الفصل الثامن

الفاسفة والمكاري بطرس

(قصة امين)

وبينما كان كلدن وزوجته صاعدين مع حاشيتهما الى الحدث كان سليم وكليم يتأهبان للسفر منها الى الارز . لان اصدقاءهما في اهدن سافروا الى الارز وبعثوا يستعجلونهما . فقال كليم لرفيقه سنتعرف بالمستر كلدن بالارز فهلمّ بنا نسافر لان الاقامة هناك تحت ظل الارز العظيم افضل من الاقامة هنا

ولما دخل كليم وسليم لتوديع صديقهما امين ظهر الحزن في وجهه . وكان قد ازداد ضعفاً وهزالاً . فودعهما وهو يقول اظن هذا الوداع هو الوداع الاخير . فقال كليم متأثراً لم نعهد قلبك ضعيفاً ايها الصديق فعلامَ الخوف وانت متقدم الى الصحة ان شاء الله . فهزّ امين رأسه وقال هل تظن انني اخاف الموت . كلاّ . فان الموت راحة لمن كان مثلي . وانما انا آسف لامر واحد .

قال ذلك وانحدرت الدموع من عينيه

فترقرق الدمع في عيني سليم وكليم وقال كليم : ما هو هذا الشيء . فقال امين: هو ان اخرج من هذه الحياة قبل ان انتقم من الظالمين

ففهم كليم مراد امين في الحال واجابه : كن على ثقة ايها الصديق انك ستشفى وتنتقم لنفسك . فان الله اعدل من ان يسحق المظلومين ويرفع الظالمين . واذا افترضنا المحال وقويت عليك علتك لعدم مداراتك نفسك فاعلم ان الظالم سيسقط من نفسه لان كل ما يُبنى على الظلم فهو مهدوم . والبغي مصرعه وخيم

فهزّ امين رأسه وقال : واأسفاه انني لا ارى هذا الامر واضحاً كل الوضوح في الحوادث البشرية . — ثم انطرح على فراشه يفكرّ والدموع ملء عينيه . وكان منظره حينئذ كمنظر جندي سقط قتيلاً في ساحة العراك في آخر النهار

اما سليم وكليم فانهما ركبا بغلين فوبين وانحدرا من الحدث قاصدين وادي حصرون . وكانا هذه المرة ساكتين يفكران بكلام الصديق امين . فسأل سليم رفيقه هل من مانع

يمنعك من اطلاعي على مراد امين بكلامه الاخير · فقال كليم كلا ولكن ليست هذه القصة جديدة في الارض · فانها قصة كل المغلوبين والمقهورين والمظلومين فيها · انها قصة العراك الابدي الذي بين الناس وهو ما يسمونه (تنازع البقاء) فان امينًا كان من موظفي الحكومة وكان محبوبًا مسموع الكلمة لذكائه وعقله · وكان على وشك الاقتران بفتاة يحبها وهي ذات دوطة طائلة · وكان احد تجاركم في بيروت يطمع في دوطتها ليصلح بها احوال محله التجاري المتضعضع · فوشى لدى الحكومة سرًا بان امينًا يعاون حزب تركيا الفتاة ويراسله فعزل وسجن واهين ولم يطلق سراحه حتى ظهر مرضه ·اما الواشي فلم يتمكن من الاقتران بخطيبته لانها تركت الاثنين معًا

فقال سليم ومن هو ذلك الواشي · فقال كليم : هو « الخواجه لوقا طمعون » فقال سليم هذا تاجر اصله من صيدا لا من بيروت وقد سمعت الناس يذمونه كثيرًا لسوء اخلاقه ·

وكان مع الرفيقين في هذه المرة مكارٍ من الحدث وهو شاب قوي البنية ربعة الجسم يدعى (بطرس) فسأل رفيقيه « هل تمرون على الديمان في طريقكم يا خواجات » فسأله كليم هل اليوم غبطة البطريرك في مصيفه هذا · فاجاب بطرس كلا بل هو غائب · فقال كليم فلنمضِ اذًا في سبيلنا

وكانت يومئذ الدار البطريركية في الديمان دارًا يدل ظاهرها على البساطة والقدم · اما اليوم فقد اقيم هنالك قصر فخيم على الطراز الحديث للسلطة البطريركية

وكان سليمًا وكليمًا راما طرد الافكار السوداء التي كانت تتردد على ذهنيهما من كلام امين ووداعه فقال الثاني للاول : لقد سلانا المكاري جرجس قليلاً من فلحات الى الحدث فبماذا يسلينا بطرس · فقال سليم اسمع · ثم التفت الى بطرس وقال له يا بطرس : لماذا تنادينا خواجات · فاجاب بطرس بوجل اذا كنتم بكوات يا معلمي فارجو السماح · فقال سليم ولا بكوات · بل نحن بشر مثلك · فاذا كنا خواجات فانت خواجه ايضًا لان كل البشر اخوان · فتنهد بطرس وقال : هذا في القول يامعلمي فقط · وما ابعد القول من الفعل الا ترى انكم راكبون وانني ماشٍ · وهذا اول فرق بيننا · فضحك سليم وكليم وقال سليم لرفيقه حقًا ان مكارينا نبيه · ثم التفت اليه وقال · ما عنيتُ هذا بقولي· وانما عنيتُ اننا واياك متساوون لدى الحكومة ولدى الله وان كان البشر يعطون بعضنا امتيازات دون بعض · فانت لست بمديون لي بشيءٍ سوى ما تقبض اجرته مني· وانا كذلك · فالآن انا راكب وانت ماشٍ باختيارك وطوعك حسب الاتفاق الذي عقدناه على ان اعطيك اجرة تعبك · فلست اذًا

امتاز عنك بشيء سوى انني تعبت وحصلت مالاً اقدر به على ان اريح نفسي من المشي . وبئست هذه الراحة لانني افضل ان اتعب مثلك واكون بصحة كصحتك

وكان سليم يتكلم وبطرس يظهر الدهشة والاستغراب . ثم اجاب . حقاً قلتَ الصواب يامعلمي . فصاح سليم رجعنا الى « معلمي » اما انا بشر مثلك . بل انت الآن معلمي لانك اقوى مني ونفعتي بيغلك اكثر مما نفعتك . فضحك بطرس وقال : حقاً قلتَ الصواب فيما يختص بالاجرة والركوب . ولكن قولك يا معلمي اننا كانا متساوون لدى الحكومة والله فيه نظر . فانني اصدق كل شيء الا هذا . اما المساواة عند الله فلندعها جانباً . لاننا متى وصلنا الى هناك نبقى نتكلم عنها . واما المساواة لدى الحكومة فاحب ان تدخل على سعادة القائمقام حين يصيف في الحدث (١) وترى الناس كيف يجلسون في حضرته وبعد ذلك نبقى نتكلم عن المساواة لدى الحكومة

فقال سليم هذا ليس ببرهان لان الناس كثيرًا ما يسيئون في تنفيذ الشرائع فلا تلصق الاساءة بالشرائع نفسها بل بمنفذيها

فقال كليم لرفيقه لا بأس بهذا الحديث اذا كان لا يحدث منه ضرر . ولكني كنت اتمنى ان لا تكون هذه التجربة فينا لئلا نكون اول من يجني ثمارها

ثم استمر الرفاق الثلاثة سائرين فقطعوا الديمان وهبطوا في وادي حصرون . وكان بطرس في اثناء ذلك يفتكر في كلام سليم وهو يقول في نفسه : حقاً ما اجهلنا نحن سكان القرى . صحيح . ما الفرق بيننا وبين الخواجات والبكوات والحكام . نحن ناكل كما ياكلون ونشرب كما يشربون ونمشي كما يمشون ونفتكر كما يفتكرون وندفع ما علينا للحكومة كما يدفعون . فلماذا يكون كل الاكرام لهم وعلينا الخدمة والطاعة والذل . والله لما اعود الى القرية ويقول لي البك اعمل هذا اولا تعمل هذا فكل جوابي يكون انني ادير له ظهري واهزّ رأسي وامشي في سبيلي

وفي هذا الحين كان الرفاق الثلاثة قد قطعوا حصرون ووصلوا الى نبع ماء على الطريق ماؤه كالفضة الجارية صفاء والثلج الذائب برودةً . فصاح سليم : يا بطرس ناولنا ماء لنشرب . وكان بطرس يفكر كما تقدم في عباراته الاخيرة . فكان كل جوابه لسليم ان هزّ راسه وادار ظهره وسار في سبيله

---

(١) كان قائمقام البترون يصيف في الحدث مع دوائر الحكومة لما تكون القائمقامية في غير يد المرحوم اسعد بك كرم المشهور الذي كان يصيف في وطنه اهدن

فقهقه كليم حتى كاد يقع عن ظهر البغل وقال لسليم . تفضل يا صاحبنا وانظر نتيجة مبادئك اما سليم فانه غضب وصاح ببطرس قلت لك ناولني ماء لاشرب . فاجاب بطرس ولماذا لا تشرب انت . فقال لان كاس الماء بعيدة ولا استطيع الدنو من النبع وانا راكب . فقال بطرس هذا امر سهل فانزل واشرب . فقال سليم انا لا امزح واسالك للمرة الاخيرة اتناولني الماء ام لا . فقال بطرس وانا لا امزح لان مناولتك الماء لم تدخل في الاتفاق الذي ذكرته فاذا شئت الشرب فانزل واشرب

وكان كليم في اثناء ذلك لا يزال يضحك . فرغبةً في انهاء هذه المسالة قال لبطرس . طيب هذا الامر لم يدخل في الاتفاق كما ذكرتَ . فناولنا الماء ونحن في مقابلة ذلك نسقيك « خمسينية » من عرق بشري

فضحك بطرس حينئذ وقال الآن تم الاتفاق . ثم دنا وناولهما الماء

وبعد الشرب قال كليم لرفيقه وهما سائران ارايت نتيجة الحرية والاستقلال والمساواة والاخاء اذا يُذرت بذورها قبل اوانها بين طبقات لم تستعدّ لها

فاجاب سليم ولكن مع غضبي من صنعه افضّل هذه الحرية التي هي في غير محلها على العبودية والذل والموت المعنوي . ولولا انني كنتُ شديد الظماء وغلبني غضبي لما لمته بل كنت اقول له : برافو يا خواجه بطرس فان امثولتنا اثمرت فيك في ساعة واحدة

فقال كليم ولكن هنا مذهبان واحد معك وواحد عليك

فقال كليم ولكن مذهبي هو المذهب الصحيح الابدي الذي انتصر مع الثورة الفرنسوية . هو مذهب الحياة والنور والحرية للطبقات الضعيفة التي تئنُّ تحت نير الطبقات القوية

الفصل التاسع

❋ ارز لبنان ❋

وصف الارز . اشجاره . جماله . عناية الحكومة به . زيارة العظماء والامراء له من اوربا واميركا واهمال جيرانه له . هل هو الحرش الذي قطع منهُ الملك سليمان خشباً لبناء هيكلِهِ في القدس

ثم جدَّ الرفاق الثلاثة في السير فبلغوا بشري فابتاع منها بطرس « خمسينية عرق » على حساب رفيقيه حسب الوعد ثم تسلقوا منها العقبة المؤدية الى جبل الارز العظيم

ولما قطعوا تلك العقبات الطويلة التي يلي بعضها بعضاً وصعدوا الى مساواة الحرش بان لهم الارز من بعيد · فاشرق وجه سليم وكليم ابتهاجاً وسروراً وصارا ينظران الى الارض التي تطأُها حوافر بغليهما نظرهما الى اشياء مقدَّسة

وكان وصول سليم وكليم الى الارز عند غروب الشمس · وكانت الطيور تتوافد من جميع جهات تلك الجهات الجرداء الى اشجار الارز لتبيت فيها · وكانت الغربان اشدها ظهوراً · فكان يُسمع صوتها الناعب من حين الى حين كانه صوت الزمان ينعي الاجيال والقرون الماضية

والارز عبارة عن حرش متسع عظيم قائم على آكام متعددة تحيط به نصف دائرة من الجبال الشامخة واشجاره شديدة الاشتباك حتى ان الشمس تكاد لا تعرف ارضه · وفي هذه الاشجار ما هو صغير وفيها ما هو ضخم كبير سامق الى السماء ويكاد عشرة رجال لا يحيطون بجذعه اذا مدوا اذرعهم حوله · وهم يقولون ان هذه الاشجار الضخمة الهائلة ترتقي الى زمن الملك سليمان الذي بنى منها هيكله المشهور في اورشليم وزمن افسس التي بنيت من خشبها بعض اماكنها اليونانية القديمة · ولكن هذا زعم لا يؤيده دليل بل ان علم النبات ينقضه · الاَّ انه من المحتمل ان اولئك المتقدمين قطعو اخشاباً من هذا الحرش وقامت الاشجار الحاضرة على آثار الاشجار المقطوعة او اشجار تلتها

اما صفة الارز فهي كما تراه في الرسم · فانه عبارة عن جذع شامخ يتوارى عنك رأسه في الفضاء لعلوه · ومن هذا الجزع تتفرع اغصان بخط افقي كما ترى في الرسم · ويبلغ طول هذه الاغصان احياناً عدة امتار · وهي تحمل اكوازاً خضراء حرشوفية كرؤُوس الصنوبر بعضها ذكور وبعضها اناث ثمَّ تنقلب عند البلوغ فتصير حمراء · ولها رائحة طيبة ترتاح اليها النفس فتعطر بطيبها وبنشر اشجارها هواء الارز النقي · ويكون في عقبها بزرتان لحفظ نوعها متى بلغت وسقطت على الارض · والارز عدة فصائل وانواع وهو ينمو في جبال سوريا وجبل حملايا في الهند وجبل الاطلس في افريقيه وجبل طورس في آسيا وفي غيرها من الجبال · ولكن أرز لبنان اشهرها كلها

والمقرر ان القطع في الحرش ممنوع اليوم قطعياً بامر من حكومة الجبل حتى ان الزائر لا يستطيع ان يقصف غصناً ليأْخذه تذكاراً من الارز الاَّ في السرّ او بمبلغ يدفعه الى الحارس · ولقد احسنت الحكومة في هذا المنع حفظاً لهذا الاثر الجليل · ومما يُذكر لها بالشكر ايضاً انها سوَّرت الحرش كله بسورٍ من الحجارة والطين لمنع الدواب من الدخول اليه ·

ولكنها مع ذلك تدخله · وهذا السور صار اليوم متهدماً وهو لانخفاضه يتسلقه الولد بسهولة لانه لا يعلو عن متر واحد

ومن الاسف ان الحكومة لا تزرع في هذا الحرش الكبير ارزاً جديداً ليقوم مقام الارز القديم متى شاخ وانقرض في القرون القادمة · والاشجار التي تنبت من تلقاء نفسها في الحرش قليلة جداً · ولكن في جهات اخرى فوق الحدث في وادٍ الى الجنوب وفي اماكن اخرى في اعالي لبنان احراشاً واسعة مؤلفة من ارز صغير آخذ في النمو · فلا ريب انه سيقوم مقام الارز الكبير في القرون القادمة · وربما وقف سائح بعد ٥٠٠ او ٨٠٠ سنة في الحرش الذي وراء الحدث في الوادي وصار يتساءل ويستنطق التوراة وكتب التاريخ ليعلم هل قطع سليمان الخشب لهيكله من ذلك الحرش ام من سواه

وسواء قطع سليمان الخشب من الحرش الكبير او من سواه فان السياح الافرنج من امراء وعظماء وعلماء يتقاطرون على هذا الحرش ويزورونه باحترام عظيم · والغريب انهم يفدون لهذا الغرض من اقصى الاقطار مع ان جيران الارز في الشام ومصر لا يعرفونه · ورجال الدين منهم يصلّون هناك بخشوع زائد ويعتبرون اجر الصلاة فيه مضاعفاً · وجميعهم ينقشون اسماءهم او بعض حروفها على جذوع اشجاره فغطوا بها كثيراً منها حتى صدر الامر بمنع ذلك حفظاً للاشجار · والزائر يشاهد احداها مكشوطة القشرة بفأس او سكين على قدر شبر او اكثر وفيها اسم منقوش · فلا نعلم كيف ان ذلك القاسي البارد ناقش هذ الاسم طاوعته يده على طعن تلك الارزة المقدسة الجميلة هذه الطعنة في صدرها

الفصل العاشر

✵ ليلة باردة تحت اشجاره ✵

(بلا فراش ولا غطاء)

فدخل سليم وكليم الى دائرة الارز مشياً على الاقدام وتبعهما بطرس مع بغليه فربطهما وراء غرفة صغيرة مبنية على انفراد بازاء الكنيسة القديمة القائمة في شمالي الارز

وقد افتقد سليم وكليم اصحابهما الذين بعثوا في طلبهما فلم يجدا لهم اثراً فاستغربا ذلك · وكان في الغرفة التي اشرنا اليها عائلة مؤلفة من امرأتين وبضعة اولاد ولم يكن في الارز

غيرهم · فسألاها فاجابتها ان قوماً كانوا نازلين في الارز قوضوا خيامهم في ذلك الصباح وساروا في جهة الجنوب ليقيموا هناك يوماً او يومين

فاستاء الرفيقان من ذلك لانهما لم يحضرا غطاء ولا فراشاً · ولكنهما تذكرا الكنيسة لان المسافرين ينامون فيها · فقيل لهما ان امين مفاتيحها غائب ولا يعود الاّ في اليوم التالي

وكان قد أمسى المساء وهبط الظلام وبرد الهواء برداً قارصاً · فصار كليم وسليم يضحكان من نفسهما لانهما سيضطران الى النوم على اديم الارض تحت السماء (١) ولكن جوعهما ذكّرهما بالطعام قبل الرقاد · فاختارا ارزة عظيمة قائمة بجانب الغرفة المذكورة الى الشمال فبسطا تحت جذعها بساطاً كان معهما وتناولا طعامهما من الخرج وجلسا · فجلس بطرس بجانبهما يأكل معهما · وكانت السيدتان صاحبتي ذوق فاحضرت احداهما قشاً وحطباً واشعلته بجانب سليم وكليم لطرد البرد والظلام · اما بطرس ففي اثناء ذلك كان يقول للسيدتين وفمه ممتلئ بالطعام « عافاكم عافاكم » كأنّ السيدة صنعت ذلك اكراماً له

ولما حان وقت الرقاد بسط الرفيقان بساطهما بجانب جذع الارزة ليتقيا به الريح الباردة التي كانت تهب من المشرق واردة عن قمم رأس القضيب وقمم الميزاب · ووضع كل واحد منهما احد كيسي الخرج تحت رأسه وادار ظهره لرفيقه وتغطيا بغطاء خفيف احضراه معهما اتفاقاً · ويظهر ان غربان الارز كانت تنظر اليهما حينئذ من اعلى الاشجار لان اثنين منهما اخذا ينعقان · فخيل للرفيقين ان صوتهما عبارة عن قهقهة وضحك من نومهما على هذا الفراش

ولما درت السيدتان ان الرفيقين سينامان تلك « النومة المكربة » خرجتا اليهما ودعتاهما الى النوم في الغرفة خوفاً عليهما من البرد · فامتنع سليم وكليم من ذلك تأدباً اذ لم يكن مع السيدتين رجال · ولكن صاحبنا بطرس دبّ حينئذ في جسمه برد شديد · وصار لا يطيق النوم في الخلاء · فقال انا اقبل دعوتكما بشكر · ثم حمل غطاءه واتجه نحو الغرفة · فصاح به سليم وكليم يا بطرس كيف تترك بغليك خارجاً الا تخاف عليهما من ذئب او ضبع · فاجاب لا فانكما انتما على مقربة منهما

فقال سليم حينئذ : كثر الله خيرك · اما كليم فانه كان يقهقه ويقول لرفيقه « ضبّط اذا كنت تقدر على مبادىء الديموقراطية التي تدعو اليها »

وهكذا نام بطرس في الغرفة مع السيدتين وبقي سليم وكليم في البرد والظلام يحرسان نفسيهما والبغلين

« ١ » اما اليوم ففي الارز فندق للمبيت والطعام الشهيّ منذ بضع سنوات

وفي الحقيقة ان الرفيقين لم يناما تلك الليلة نوماً هنيئاً . فكانا كالاسد ينامان بعين ويسهران بعين خوفاً من الطوارئ . وكان ذلك السكون التام في هدوء الليل وسط جبال شاهقة واحراش متسعة وجهات مقفرة مما يجعل نفس اقوى الاقوياء في حذر دائم سواء كان ذلك من اللصوص او الوحوش

ويظهر ان خوف سليم وكليم كان في محله فانه لم تدخل الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى انتبه سليم على صوت قرقعة فرفع رأسه قليلاً فلم يرَ شيئاً ولكنه سمع صوتاً كصوت كلب يقضم عظمة . ثم تلا ذلك صوت البغلين يرفسان ويجفلان وقد قطعا قيادهما واخذا يهيمان بين اشجار الارز . فحينئذ انتبه بطرس وخرج من الغرفة وصاح " ذئب ذئب " فهبَّ الرفيقان مذعورين اذ لم يكن في يدهما سلاح حتى ولا سكين تجرح . ولكن من حسن الحظ كان لدى السيدتين بندقيتان لرجلهما الذي كان قد سافر الى بشري في ذلك اليوم . فتسلح سليم وكليم بالبندقيتين . وبذلك عادت اليهما قوة الابطال

ولما لم يرَ للذئب اثر قضى الجماعة بقية الليل في السهر خوفاً من غدره . فلم يلبث الصباح ان ذر قرنه وهبت نسماته ابرد من الثلج . وانتبهت الطيور في اعالي الاشجار تستقبل الفجر باصواتها المختلفة . فقال سليم لرفيقه لا اعلم كيف تطلع علينا شمس الغد فاننا تعبنا وسهرنا ونمنا في البرد . ولكن لما اصبح الصباح وتعارفت الوجوه هبَّ سليم وكليم يمشيان بقوة ونشاط فوق العادة . فاستغربا ذلك . وعجبا من جودة ذلك الهواء النقي الخارج من يد الله كما صنعه الله يجدد القوى ويملأ النفس نشاطاً وارتياحاً

وبعد ان غسل الرفيقان وجهيهما بماء يستقى من نبع قريب من الارز قال سليم : ان هذا الذئب قد اخافنا في الليل وانا من المغرمين بالصيد . فهلم بنا ناخذ البندقيتين وشيئاً من الرصاص ونصعد الى الجبال التي فوقنا فاننا نصطاد فيها ونتفرج بمشاهدتها ونروض اجسامنا باجتيازها ونتغذى من لبان المواشي التي ترعى بها . واذا وجدنا الذئب في طريقنا فالويل له

فطاوعه كليم على ذلك فاخذا البندقيتين وسارا وقد تركا بطرس في الارز في احسن رفقة على ان يعودا في المساء . وكان اتجاههما الى جهة الشرق نحو راس القضيب وراء الارز وهو جبل مشرف عليه وعلوه نحو ٩ آلاف متر عن سطح البحر . وهو مقابل " لفم الميزاب " الذي يعلوه الف قدم

الفصل الحادي عشر

﴿ الوحش الوحش الوحش ﴾

ملك راس القضيب وفم الميزاب

وقطع الرفيقان المسافة بين الارز وسفح الجبل يصطادان ما يجدانه فاصابا غرابين وثعلباً. وبينما كانا واقفين على احد الرعاة يحلب لهما لبناً واذا بالراعي صفر صفيراً شديداً. فهبت كلابه كالبرق الخاطف . ثم اشار الراعي الى سفح الجبل وقال انظرتم ذلك الذئب

فابصر الرفيقان حينئذ شبحاً بعيداً هيئته كهيئة الكلب يثب من صخرة الى صخرة في سفح الجبل

فشرب سليم وكليم لبن الشاة على عجل ثم اتجها نحو الذئب

وكانت الشمس قد ظهرت حينئذ من وراء تلك الجبال العالية فصار الجبل يدخن من تأثير حرارتها. فضحك كليم وقال اصعد فهذا طور سيناء يعممه الضباب . فقال سليم لا تشغلنا بالمزاح الآن والا فاتنا الذئب. ويظهر ان الذئب قد رآهما لانه اخذ يعدو عدواً سريعاً موغلاً في الجبل. فجد سليم وكليم في طلبه وهو تارة يظهر وطوراً يغيب . واستمرا على ذلك نحو نصف ساعة حتى كلَّت قواهما . وكان الذئب يتلفت ثم يجدّ في العدو فيخيل لهما حين لفتته انه يضحك منهما ويقول لهما (أراه غباري ثم قال له الحقِ)

ولكن هذا الطراد لم يستمر وقتاً طويلاً . فان الضباب كان قد تكاثف على الجبال المجاورة وصارت الريح تسفيه نحو سليم وكليم. فلم يمضِ ربع ساعة حتى اقبل عليهما مسرعاً. فقال سليم هذه مصيبة ما كانت في الحسبان . وفي الحقيقة انه مصاب ذو شأن . فان الضباب غطى الجبل واحاط بهما من كل جانب فلم يعودا يعرفان الطريق(١) وكانا قد قطعا ثلثي الجبل والذئب امامهما ولا تخلو تلك الاماكن المقفرة من غيره من الوحوش. فصارا يسيران رجوعاً على غير هدى راضيين من الغنيمة بالاياب سالمين من مفاجئة الوحوش والذئاب لانهما كانا لا ينظران شيئاً ابعد من عشرين قدماً . فاشبها في هذه الحالة رجلين مكتوفين

« ١ » يسمون هناك هذا الضباب غطيطه لانه يغطي الارض . والطرابلسيون يرونه من مدينتهم يعمم جبال لبنان كالغيوم

ملقيين لسباع البرّ لان سلاحهما وايديهما التي كانا يعتمدان عليها لم تعد تجديهما نفعاً ٠ وبذلك صارا ضعيفين كطفلين

وكانا من حين الى حين يطلقان بندقيتهما في الفضاء ارهاباً وابعاداً للوحوش عنهما

وبينما هما سائران كعميان يتلمسون الطريق وقد تكاثف الضباب فيها حتى لم يعد يرى احدهما موضع قدمه واذ هوت اقدامهما في واد صغير فسقطا وانطلقت البندقيتان في سقوطهما ولولا رحمة الله لقتلتهما ٠ ولكنهما لم يكادا ينهضان مترضضين حتى سمعا طلقاً نارياً قريباً منهما في بطن الوادي وصائح يصيح بصوت اجش ـ « الوحش الوحش الوحش »

فانقطعت حينئذ انفاسهما وجمدا في مكانهما يتوقعان امرًا جديداً

فلم يلبث ان لاحت لهما من خلال الضباب المتكاثف على قيد ذراعين منهما صورة هائلة فان وحشاً هائل الجثة منتصباً على قدميه مغطى جسمه بالشعر وله وجه كوجوه البشر حوله شعر كثيف طويل ولحية مخيفة كان واقفاً امامهما وقفة الاسد ينتظر فريسته

فكاد دمهما حينئذ يجمد في عروقهما خوفاً وجزعاً ٠ ومدّ سليم يده الى بندقيته ولكنه ذكر انها كانت فارغة

اما ذلك الشخص الهائل فكأنه فهم فكر سليم فرفع بندقيته في الفضاء كتهديد وانذار وصاح بصوته الاجش « الوحش الوحش الوحش »

فعجب حينئذ سليم وكليم من ان ذلك المخلوق الغريب قادر على النطق كالبشر ٠ فرأيا حينئذ وجوب المجامله فاخفيا جزعهما وابتسما وقال كليم (العوافي يا عمّ)

فاجاب ذلك المخلوق الهائل (الله يعافيك ماذا تصنعون هنا)

فثاب الرشد حينئذ الى سليم وكليم وتحركت نفسهما للدخول في الحديث معه فاجابا نحن نتصيد وقد فاجأنا الضباب وادركنا الجوع فهل معك طعام

فقال الرجل عندي طعام ٠ ولكن لماذا دخلتم الى هنا من غير اذن مني

فقال سليم كنا قادمين لاستئذانك فالحمد لله اننا لقيناك هنا

فقال الرجل ٠ فاياكم مرة اخرى ان تدخلوا هذا المكان من غير اذني

فاجاب سليم وكليم ٠ امرك يا عم

وفي هذا الحين هبت ريح شديدة من جهة الشرق فكنست الضباب عن الجبل ودفعته الى جهة الارز فانجلى المكان للانظار فوجد سليم وكليم نفسيهما في وادٍ صغير واسع الاديم وعليه في جانبه العالي كوخ صغير مستور عن الانظار لانه على مساواة الجبل ٠

فمشي الرجل الهائل نحو الكوخ قائلاً: تعالوا لاطعمكم ·

فخيل لسليم انه قال: تعالوا لآكلكم لانه خاف عاقبة السير معه الى حيث يقصد · وذكر في تلك اللحظة حكايات الغول والجن التي سمعها في صغره من العجائز والشيوخ وكيف انها تاكل الناس فقال لرفيقه مازحاً في ابان الخطر اظهاراً للقوة: ما جئنا نسمن اجسامنا في الارز لكي نجعلها طعاماً لوحش كهذا الوحش

وكان الرجل الهائل قد بلغ كوخه في طرف الوادي ودخله ثم خرج ومعه بيضتان وكسرتا خبز فوضعهما على حجرين بازاء الكوخ واوماء الى الرفيقين قائلاً: تعالوا كلوا

وكان سليم وكليم لا يزالان جامدين في مكانهما يتشاغلان باصلاح ملابسهما · فلم يريا مناصاً من اجابة الرجل الى دعوته · فتقدما نحو الحجرين بجانب الكوخ وجلسا · اما الرجل فانه جلس بازائهما بعيداً عنهما نحو ثلاثة امتار

فحدق به الرفيقان هذه المرة جيداً فذهب عنهما حيئذ شيء من الجزع والخوف · فان ذلك الرجل كان انساناً لا يختلف عن باقي البشر الا بكونه يلبس رداء مصنوعاً من جلود الغنم الى ركبتيه وليس على جسمه لباس غيره · وكان وجهه محاطاً بشعر كثيف طويل شاب اكثره ولكن في عينيه وملامحه دلائل الهدوء والتأمل والانكسار وما هذه بعلامات الوحوش او قطاع السبيل · فسكن حينئذ بال الرفيقين وقال سليم لكليم هلم ندخل معه في الحديث فانني ارى لهذا الرجل شاناً يُذكر

فالتفت اليه كليم وقال: هل مضى عليك وقت طويل في هذا المكان يا عم

وكان الرجل حينئذ مطرقاً الى الارض يتأمل ويفتكر بما قام في نفسه لدى مشاهدته هؤلاء البشر القادمين من المدن · فرفع رأسه لسؤال كليم وادار فيه عينين متحمستين واجاب · اقيم هنا من حينما جئت الى هنا · فقال سليم ومتى جئت الى هنا · فتنهد الرجل واجاب · من حين تكوين العالم

فنظر سليم الى رفيقه بدهشة · فقال الرجل: مالك لا تصدقني قلتُ لك انني هنا من حين تكوين العالم · فاذا كنتَ نبيهاً فافهم والا فاسكت وارحني

فقال كليم: عفواً يا عم واسمح لي ان اكلمك بحرية · اننا لما نظرناك اول مرة دهشنا لاقامتك منفرداً في هذا المكان · اما الآن فيظهر لنا من كلامك انك في شأن عظيم فهل تكرم علينا وتفيدنا شيئاً

فلما سمع الشيخ هذا الكلام اللين اطرق الى الارض بانكسار وصار يفكر · ثم رفع رأسه

وقال : انني مسرور من لطفك ولين كلامك · وهذه اول مرة في حياتي ارى فيها رجلاً عاقلاً · ولكن اعذرني فان سري هائل

فازداد سليم وكليم رغبة في الوقوف على خبر هذا الرجل الغريب فقال سليم : نحن اولادك ياعم فلا تحذر منا

فلما سمع الشيخ كلمة « اولادك » اجفل ونهض كأنَّ افعى لسعته · وبدا الغضب في وجهه فقال : لا لا ليس لي اولاد ولا اريد ان يكون لي اولاد

فقال كليم لرفيقه : لقد هدمتَ ما بنيناه · ثم التفت الى الشيخ وقال : الحق اقوله لك ياعم انني لا استطيع كتمان ما في نفسي · فلا تغضب علينا ودعنا نستفيد منك · انني ارى في امرك شيئاً مدهشاً ويخيل لي انني اقرأه في عينيك · فاستحلفك باسم الله ان لا تحرمنا من الفائدة

فلما فاه كليم بكلمة «الله» احنى الشيخ عنقه وجثا على الارض وعفر خده بالتراب وهو مطبق العينين

فقال كليم لرفيقه همساً : لقد قبضنا على شيء · ثم قال للشيخ · فالله سبحانه وتعالى قد هيأ لنا اليوم فرصة لقياك · ولا ريب أن ذلك بتدبير منه وعناية خصوصية · فهل لك ان تطلعنا على سبب اقامتك هنا انفاذاً لارادة الله

فرفع الشيخ راسه واستوى جالساً · ثم قال · نعم ربما كان لله ارادة بهذا الامر · ولا اخفي عنكم انني في الليالي الاخيرة سمعت مراراً صائحاً يصيح · لقد انتهى لقد انتهى

« اجل يا اخوان لقد انتهى ملك الشر والظلم والكذب والرياء والاعتداء في العالم الفاسد · ان الفأس قد وضعت على اصل الشجرة فكل شجرة لا تثمر ثمراً صالحاً تُقطع وتلقى في النار

« انظروا هذه المملكة الواسعة التي امامنا · هذه هي العالم الحقيقي · ولذلك قلت لكم انني ههنا منذ تكوين العالم · فانا الآن هنا اكوّن العالم الحقيقي الذي يسود فيه الخير والصلاح · وقد مرت عليَّ سنوات عديدة اهذبه واؤدبه · فتم لي ذلك بمعونة الله تعالى · واذا فتشتم هذه الاقطار كلها لا تجدون فيها بين سكانها اثراً لفظائع العالم وشروره الهائلة

فقال سليم همساً · نعم لا نجد فيه شيئاً حتى ولا سكان · فاجاب كليم همساً ايضاً · يظهر ان صاحبنا مجنون

ثم التفت كليم الى الشيخ وقال · انني اعجب ياعم كيف استطعت تهذيب هذه المملكة مع ان الملوك عجزوا حتى الآن عن تهذيب ممالكهم

فصاح الشيخ حينئذ بغضب · ويل للملوك ولترتجف عروشهم من غضب الله · ولو كان اصغر الملوك يصنع بمملكته ما صنعته بمملكتي لما بقي فيها شر · فانني سأَلت نفسي حين تسلمت

هذه المملكة ما هو اصل الشر ؟ فرايت ان اصله الوحش الذي في الانسان · فانكم تعلمون ان في الانسان شيئين · الوحش والانسان · فالوحش يطلب كل شيء لنفسه ولو مات غيره والانسان يشفق على نفسه وعلى غيره ايضاً · فقلتُ إن رأس واجباتي كملك لهذه الديار قتل الوحش لاستئصال الشر · فاقتنيت هذه البندقية وقد اشتريتها بجلود عشرين ذئباً واسدين وخمسين ثعلباً وعشر ضباع · وكنتُ اجلس على هذه الرابية وكلما رايت احداً يعتدي على غيره — اي كلما رأيت الوحش يطمع في ما هو لغيره — قتلته برصاصة واحدة · ففي بدء الامر قتلت مئات ثم عشرات اما الآن فقد تناقص الشر وقلما اقتل في الشهر واحداً

فارتعدت حينئذ فرائص سليم وكليم لهذا الكلام وتحققا جنون ذلك الشيخ التعيس · وصار همهما اظهار التقوى والصلاح والقداسة لئلا يلحقهما ابن فتك بهم جنونه من قبل · اما الشيخ فكان في هذا الحين يسرّح نظره في مملكته الواسعة · واذا به قد صرخ بغتة بصوت كصوت الوحوش « الوحش الوحش الوحش » وقام يعدو و بندقيته في يده · فالتفت كليم وسليم وهما مدهوشان الى الجهة التي سار فيها فنظرا على اكمة قريبة ذئبين يتقاتلان · فلما خرج الشيخ من واديه اطلق على الذئبين طلقين فصرعهما بالحال · ثم اسرع اليهما فاجهز عليهما وجرّهما الى كوخه وطرحهما امام سليم وكليم وهو يضحك لفوزه ويقول · كلاهما معتدٍ فارحنا المملكة منهما

فتنفس سليم وكليم حينئذ الصعداء لانهما علما انه انما كان يقصد بكلامه الحيوانات لا البشر · وقال كليم حينئذ للشيخ الذي كان يحشو بندقيته · « لقد ادهشتنا يا عم بقوتك ونشاطك وصلاحك · فلماذا لا تذهب معنا الى المدن لمحاربة الشر هناك وتكوين العالم الحقيقي فيها · ان مدننا الفظيعة القبيحة محتاجة الى هذا الاصلاح · فلماذا تحرمها من مساعدتك

فعبس الشيخ حينئذ وقال وشرر الغضب تتطاير من عينيه « المدن ويل للمدن · وويل لي اذا دخلت المدن · فانني لا اقدر على جميع الوحوش التي فيها اذ ليس لي غير يدين ولا اقدر ان امسك بهما اكثر من بندقية واحدة · وبندقية واحدة لا تكفي لاخضاع الوحوش الذين فيها · اه من المدن ومن العذاب الذي ذقته في المدن · لا تصدقوا انني ولدت هنا بل انني ولدت في المدن وعشت في المدن · ولكن الوحوش فيها اكلتني وطحنتني ففررت منها · كلا يا اخوان ان صحبة الذئاب والضباع والنمورة في البر افضل من صحبة الانسان في المدن · ولكن لا بأس ستاتي نوبة المدن · وحينئذ ادخل اليها باذن الله دخول المنتقم لله من وحوشها الضارية »

فقال سليم ومتى يكون ذلك ياعماه فقال الشيخ : اما سمعت ما قلته من ان الأمر قد انتهى .
فمنذ هذا الحين وقف كليم وسليم على حقيقة حالة ذلك التعيس . فعلما انه رجل اضاع صوابه لظلم اصابه فبرح بلدته واقام في تلك الجهات المقفرة وهو يعتقد ان الله ولاه عليها لمحو الظلم والشر ثم يهلكه المدن لاستئصالها منها ايضاً . وقد افتقد سليم وكليم كوخه ومعيشته فوجدا انه يعيش في اشد الحالات ورب يوم لا يتناول فيه غير كسرة خبز اسود يصنعه من دقيق يعجنه ويشويه على النار او قطعة من لحم الوحوش (المعتدية) التي يصطادها . وكان يمر عليه في زمن الثلج والشتاء عدة ايام مخبوءاً في كوخه الحقير لا يخرج منه لتراكم الثلج عليه في ذلك الجبل . وكان قد تعود احتمال البرد كالحيوانات . فاذا ذاب الثلج قليلا زحف من كوخه وخرج على الثلوج يسير عليها زلقاً لا مشياً . كانه سائح فوق ثلوج القطبين
فاشفق كليم وسليم اشد اشفاق على ذلك الرجل الذي يعيش في شيخوخته هذه المعيشة القاسية . فصارا يفكران في سبيل لنفعه . وقبل توديعه عرضا عليه نقوداً وسألاه ماذا يتمنى . فرد النقود بعظمة ضاحكاً وقال : ماذا اصنع هنا بالمال . اما حاجتي فهي ان لا تطلقا النار في مملكتي على احد الا اذا كان ظالماً معتدياً والا اضطررت الى تاديبكما . فاخبره حينئذ سليم وهو يضحك في نفسه انهما لم يطاردا الذئب الا لانه هجم عليهما تلك الليلة في الارز . قال له الشيخ انني اعرف هذا الوحش وهو يسمى (ابا اليد الحمراء) فساؤدبه قريباً

الفصل الثاني عشر

الجميع في الارز

الحقيقة في افواه المجانين . توافد اهل الجبة الوفا على الارز . عود الى مجنون ليلى ورأيه في الاخاء البشري . امين .
رأي روسو في التربية

ونزل سليم وكليم من رأس القضيب بعد ان وعدا ذلك الشيخ التعيس بان يعودا اليه لزيارته ما داما مقيمين في الارز

وفيما هما منحدران اخذا يتحدثان في امر هذا الرجل . فقال سليم لم تبقَ لدينا شبهة في انه مجنون ولكن هل رأيت كيف ان جنونه منصرف الى اهم مسألة . فقال : اي مسألة تعني فقال . مسألة رفع الظلم والاعتداء والضغط عن الناس . فهو يسمي « الوحش » كل عاطفة

رديئة تحمل الحيّ على اضرار حيّ آخر والاعتداء عليه طمعاً في الفائدة لنفسه · فيا للحكمة والفلسفة في افواه المجانين وعندي ان هذا الرجل لم يدرك هذه الحقيقة الا بالاختبار والمصائب · فيظهر انه كان تعيساً جدًا في حياته في وطنه كما قال حتى انصرف جنونه الى هذه الجهة

فقال كليم سننبش ذلك في زيارتنا الثانية ·

وما قرب الرفيقان من حرش الارز حتى سمعا ضجة عظيمة وابصرا الناس جماهير حول الحرش وداخله · وكانوا بين فتيان وفتيات ورجال ونساء · وهم يبلغون نحو الف شخص فعجب الرفيقان من ذلك ولما وصلا الى الحرش دخلا بين الناس واستخبرا الخبر فعلما حينئذ ما يلي

لما وصل الخواجه كلدن وزوجته الى الحدث لم يعجب المكان السيدة اميليا لانها كانت مضطربة النفس من سياحتها لا يعجبها شيء · فتضجرت وقالت : ان جبال كاليفورنيا اجمل من هذه الجبال · فامر زوجها رجاله بالمبيت في الحدث تلك الليلة للراحة فقط و بالسفر الى الارز في مساء اليوم التالي لانه كان على ثقة من رضى اميليا عن الارز اكثر من الحدث · وفي المساء بلغ اميليا رغبة بعض الاهالي في ان يصنع زوجها (نهاره) عندهم فضحكت وابلغت زوجها هذا الخبر · وكان كلدن يعلم ان ذلك يسرّ زوجته جدًا لميلها بالطبع الى الشرقيين ابناء وطنها · فامر وكيله ان يعدّ له ريالات عثمانية بقيمة الف جنيه وقال لابي مرعب وقومه (يس يس سنامل يووم كلدن في المرز) يعني (سنعمل يوم كلدن في الارز)

فمنذ هذا الحين طار هذا الخبر بسرعة البرق الخاطف بين السكان والقرى في الجبة كلها · فضحك له الخاصة وسرّ به العامة · واذ عُلم ان ذلك الغني الاميركي مسافر في اليوم التالي الى الارز اخذ القرويون ينسلون الى الارز من كل حدب وصوب ليستقبلوه استقبالاً عظيماً وينتظروا يومه · وكان اكثر القادمين من الطبقات المحتاجة · ومع ذلك فقد كان اكثرهم يظهرون انهم قادمون لاكرام غني كريم كهذا الغني ومشاهدته لا لنواله · فيا لعزة نفس الشرقي الذي يرى توزيع المال عليه من غير عمل يتعب فيه نقيصةً وعارًا

وبينما كان الرفيقان يجولان بين الجموع التي اجتمعت في الارز واذا برجل يناديهما من بعيد « يا خواجات يا خواجات » فالتفتا فابصرا رجلاً غريباً لا يعرفانه · ولكن هذا الرجل ضحك ودنا منهما · ولما اقترب صاح سليم وكليم معاً : مسيو مخلوف · فقال المجنون العاشق مبتسماً : نعم مسيو مخلوف · هل علمتم متى يحضر الاميركي

فلم يجب الرفيقان عن هذا السؤال لانهما كانا مشتغلين بالدهشة من حالة مخلوف الجديدة · فقد كان لابساً ثياباً نظيفة مرتبة وفي رجله حذاء ليس بقديم وعلى رأسه طربوش نظيف

وشعره ولحيته مقصوصان ومزينان وكانت هيئته وكلامه واشاراته كلها تدل على انه معتنٍ بنفسه اشد عناية . ففطن سليم في الحال الى ان هذا الانقلاب الجديد فيه نتيجة الدرس الذي القاه عليه في عين السنديانة . فسرَّ بهذا الخير الذي قدر على صنعه مع هذا المسكين . ومن هذا الحين ازدادت عنايته به لاتمام عمله

واذ انفرد سليم بمخلوف سأله اين بدلتَ ملابسك يا خواجه مخلوف . فنظر اليه المجنون بلطفٍ كلطف الاولاد واجاب بدَّلتها في حصرون . فقال وهل تعرف احدًا فيها . فحدق مخلوف فيه واجاب : وهل نحن نحتاج لمعرفة الناس . اما نحن جميعًا اخوان . انني حيثما اكون ادخل اول بيتٍ اراه في وجهي واطلب من صاحبه او صاحبته ما اكون في حاجة اليه . فآكل واشرب والبس ثم انطلق على شرط انني لا احمل معي شيئًا حتى ولا كسرة خبز لان الله يرسل خبز الغد . فدهش سليم وساله : واذا منعوا عنك ما تطلب . فغضب المجنون واجاب : كيف يمنعون عني ذلك اما نحن اخوان . اليس لي مالهم ولهم مالي . الا يعلمون انهم اذا امنعوا عني شيئًا فالله يمنع عنهم اضعافه

فضحك سليم وقال له : اذا بقيتْ لك هذه الافكار الجميلة يا خواجه مخلوف فانك تبقى سعيدًا وتنال امنيتك ...

وما اتى سليم على هذه العبارة حتى شوهدت الجموع في الارز تتحرك كلها مسرعة نحو الطريق فقال مخلوف لعل صاحبنا الاميركي قد اتى

وكان قد امسى المساء واشعة الشمس لم تعد تصل الى الارز لانها توارت وراء آكام بشري والديمان والحدث . الا ان عصابة منها كانت تزين رؤوس الجبال فوق الارز دلالة على انها لم تغب بعد . وكان القادمون في هذه الساعة رجال المستر كلدن سبقوه لنصب الخيام فاجتمع عليهم الناس . وقد نصبوها في شرقي الارز تحت اشجاره على اكمة عالية تشرف عليه . اما المستر كلدن وزوجته وابنتاها ووكيل اشغاله فكان وصولهم بعد هبوط الظلام

و بعد وصولها بساعتين اذا بثلاثة بغال داخلة الى الارز . وعليها امين وابواه . فدهش سليم وكليم لذلك . وكان امين في اضطراب وانزعاج شديد . ثم علما من ابويه ان عدوه القديم الخواجه لوقا طمعون وصل الحدث للتصييف فيها ولذلك فرَّ امين منها . هذا فضلاً عن رغبته في حضور « يوم كلدن » في الارز

ولم ينتصف الليل حتى صار عدد المتوافدين على الارز نحو الفي شخص فلما رآهم سليم وكليم يتمددون على الارض للرّقاد بدون غطاء ولا فراش قال سليم لكليم . نحن حسبنا

انا صنعنا امس صنع الابطال بنومنا تحت هذه الاشجار على خرج تحت غطاء خفيف فانظر الى اصحابنا القرويين فانهم ينامون بلا خرج ولا غطاء كأن الامر عندهم في غاية البساطة

فاجاب كايم هذا مصداق لقول روسو يجب ان لا يربى الانسان كشجرة تعيش في هذا الاقليم ولا تعيش في ذاك بل يجب ان يُجعل قادرًا على المعيشة في كل الاقاليم فحيثما القيته جاء واقفًا على قدميه نشيطًا قويًا قادرًا على احتمال كل تقلبات الحياة

الفصل الثالث عشر

كيف يكون غضب النساء

تاجر في بيروت يطلب وكالة الاشغال في الشرق · حلم اميليا · غضبها · قصتها

وفي الصباح انتبه المستر كلدن مع غربان الارز لانه كجميع الرجال النشيطين اعتاد التبكير · ولما نهض استدعى كاتم اسراره المستر كرنيجي وساله هل انتبهت لادي كلدن · فاجاب كلا · فقال كلدن خذ كرسيًا يا مستر كرنيجي واجلس · هل ورد البريد الاخير · فاجاب كاتم الاسرار نعم يا سر قد اخذناه في الحدث وهذه بضع رسائل تقتضي الجواب · فتناولها المستر كلدن بنشاط واجال نظره فيها

وبعد حين سأله من هو كاتب هذا الكتاب · فاجاب كرنيجي هو تاجر مشهور في بيروت وهو يقول في ختامه انه قادم لمقابلتكم للترحيب بكم والاتفاق معكم على الشروط · فقال كلدن وما رأيك في طلبه · فقال كرنيجي بما انكم عزمتم على احتكار الشرانق والحرير في العالم فمن الصواب ان تجعلوا لكم وكيلًا وطنيًا في سوريا ولبنان لابتياع الموسم · فقال كلدن وهل هذا الرجل مشهود بامانته واستقامته · فضحك كرنيجي وقال لقد ارسل مع كتابه شهادات من اعظم الرؤساء الدينيين والمدنيين حتى من بعض قناصلنا · وهذه هي الشهادات

ثم ان كاتم الاسرار القاها على مائدة في وسط الخيمة

وكانت هذه الخيمة منصوبة بجانب خيمة لادي كلدن وابنتيها · فيظهر ان حديث الرجلين نبّه اللادي من نومها · فانها في ذلك الحين ازاحت باب الخيمة وظهرت بثوب النوم باسمة موردة الخدين كانها وردة رطبة برزت من وراء غصنها · فقام اليها المستر كلدن مسرورًا لسرورها فقبلها قبلة شهية في الصباح وادخلها خيمته لان البرد كان قارصًا في الخارج

فخرج حينئذ كرنيجي من الخيمة · فسألها كلدن كيف ترين الارز · فاجابت هذه اول مرة سررت فيها بسياحتنا · ولولا هذا المكان الجليل الجميل لاسفت على انتقالنا من اميركا· فقال كلدن الحمد لله الحمد لله · وهل ذهبت الافكار السوداء · فعبست اميليا وقالت بحياتك لا تذكرني بها · آه لو تعلم الحلم الجميل الذي رايته في هذا الليل · فقال ماذا رأيتِ · فقالت وقد بدت الدموع في عينيها رأيته في السماء لابساً ملابس الملائكة وهو يبتسم لي ويقول · رضي الله عنكِ رضي الله عنكِ · لا تحزني فانني استرحت هنا بعد عذابي في الارض

وهنا استخرطت اميليا في البكاء فاكبت على المائدة التي كانت في وسط الخيمة وصارت تذرف الدموع · فلام المستر كلدن نفسه لانه فتح هذا الباب · ورغبة في صرفها عنه مال اليها ملاطفاً ومتوجعاً وهو يقول · بحياة عينيك يا حبيبتي لا تنغصي عيشنا في هذا اليوم الجميل ولا تهيجي عينيك بالبكاء فعليك مقابلة الناس · فرفعت رأسها وقالت اي ناس · فقال انك ستصنعين « يوم كلدن » بيدك · فتكون الهبة اكثر قيمة واشد تاثيرًا · اذ شتان بين يدك البيضاء الجميلة ويدي الخشنة · وفضلاً عن ذلك فان تاجرًا مشهورًا من ابناء وطنك سيزورنا اليوم · فقالت بدهشة اي تاجر · فقال هو تاجر من بيروت يطلب ان يكون وكيل اشغالنا التجارية في الشرق كله وهذا كتابه وشهاداته امامك على المائدة

فمدّت اميليا يدها الى الاوراق وادارتها لترى التوقيع الذي على الكتاب

وحينئذ صاحت صيحة من اعماق قلبها ووثبت مجفلة كان حية لسعتها

فاجفل المستر كلدن وعرته دهشة عظيمة فصاح ما بكِ ما بكِ

اما اميليا فكانت منتصبة بهياج شديد وراء المائدة ووجهها كوجوه الاموات لاصفراره فهال منظرها المستر كلدن وحسب انها جُنت · فصاح بحياتك اميليا قولي ما بكِ

فصاحت حينئذ اميليا بصوت كصوت لبوةٍ هوجمت اشبالها : من اوصل هذه الاوراق الى هنا

فقال كلدن : هل تعرفين صاحبها

فصاحت اميليا : يسألني هل اعرفه · ومن ذا الذي لا يعرف الذئاب والوحوش الضارية · ماذا يريد هذا الرجل منا · اما كفاه انه سم اول حياتي فجاء الآن يسمم آخرها

ففهم كلدن حينئذ ان في المسالة سرًا : فقال لها بلطف · عفوًا يا اميليا · هدئي بالك واجلسي لنتحادث في هذا الشأن بهدوء · ولا يكون الا ما تحبين

فقالت اميليا · لا لا · لا اريد ان انكلم عن هذا الرجل ولا ان اسمع اسمه ولا ان

اری وجهه · حبيبي جورج اقتلني ولا تجعل له في حياتي ذكرًا بعد اليوم · لانه يسمم حياتي· انني ارى دهشتك الآن واعلم ماذا تقول في نفسك · انك تقول لم اعهد اميليا رديئة القلب الى هذا الحدّ · فانها من الذين يصفحون و يحلمون ويحبون اعداءهم ويباركون مبغضيهم فما بالها الآن عمدت الى الرداءة والخبث· لا لا ياحبيبي لست رديئة ولا خبيثة· وانما انا فتاة ذاقت من هذا الرجل ما لم تذقه الفرائس من الوحوش· فانا اغتفر كل الذنوب والآثام واصفح عن كل الاساءات الا عن اساءة هذا الوحش · واذا كان الله يكتب عليَّ هذه العاطفة الرديئة فانني افضل دخول جهنم على الصفح عن هذا الرجل

وكانت اميليا حينئذ في حالة لو رآها رافاييل لعض اصابعه تحسرًا على انه لم يظفر بمثلها في حياته ليصوّر بتصويرها اجمل سيدة في اجمل غضب · ولو سمعها الناصري لعلم مبلغ ظلامتها من مبلغ تأثرها وحينئذ يقول لها : ايتها المرأة مغفورة خطيئتك

اما كلدن فانه صار يضحك بعد وقوفه على حقيقة المسألة · فقال لها · انا لا اسيء الظن بك لانني اعرف قلبك · فاجلسي وقصي عليَّ القصة من اولها · ثم ان غضبك في غير محله فان الغضب يكون عادةً سلاح الضعفاء المغلوبين لا الاقوياء · وهو الآن ضعيف بالنسبة الينا لانه جاء يرجو منا لنجعله وكيل اشغالنا· فصاحت اميليا· كما كان وكيل اشغالنا فقال كلدن اذاً فاضحكي يا عزيزتي ضحك القوي الواثق بقوته وبحقه · المنتصر على خصمه· بدل ان تغضبي غضب الخوف والاهتمام بما لا يستحق الاهتمام

فسكن حينئذ جأش اميليا شيئًا فشيئًا وجلست تقصُّ عليه قصتها · فعلم كلدن ان الخواجا لوقا طمعون هو الرجل الذي كان سبب مصابها ومصاب اهلها · فانه كان اولاً من اصدقاء ابيها وكان يتزلف اليه ويتقرب منه طمعاً في الفائدة · وكان يتظاهر بانه يريد الاقتران بابنته · فاصطفاه ابوها واطلعه على اشغاله واسراره وصار يعوّل علي نصائحه وآرائه ويمدّه بمساعدته نفعاً له وترويجاً لاعماله · فاغتنم لوقا هذه الفرصة وغدر بالرجل ليبني اشغاله على انقاض اشغاله ويحلّ محله في بلده ويجمع لنفسه راسمالاً من راسماله · فادت دسائس لوقا لابيها الى خسارة ابيها امواله كلها وخراب محله وسقوط منزلته· فماتت امها قهرًا من هذه الحالة · وهي نفسها عزمت يوماً على الانتحار تخلصاً من الفقر والضيق والجوع فالقت نفسها في البحر ولكنها أُخرجت قبل فراق الروح · فعدلت حينئذ عن الانتحار وعزمت على الفرار من بلدها ففرت وتركت اباها وحيدًا فريدًا · وهذا ما كان يطير صوابها · الا انها كانت تؤمل ان اباها يقدر ان يعيش براحة وحده في منزله · فخاب املها من سوء الحظ

ونكد الطالع لان اصحاب الديون بتحريض لوقا استولوا على المنزل وباعوه وطردوا الرجل منه ·
وكان قصد لوقا من ذلك محو كل اثر لهذه العائلة واثرها القديم لانها تذكره بحالته القديمة ·
ومنذ هذا الحين لم تعد الفتاة تسمع شيئاً عن ابيها · فكيف تستطيع الآن ان ترى وجه
ذلك الرجل الذي كان سبباً في كل هذه الفظائع والمصائب

ولكن ما اتت اميليا على آخر الكلام حتى علت في الارز جلبة شديدة وكثر الصياح
والصراخ فخرج المستر كلدن من خيمته ليعلم السبب فلقي سكرتيره المستر كرنيجي داخلاً
فسأله ماالخبر · فاجابه قوم يتخاصمون ويتضاربون

الفصل الرابع عشر

❋ مجنون ليلى وملك راس القضيب ❋

احتماع جنونهما على واحد

وكان لتلك الجلبة والصياح سبب في غاية الاهمية · واليك بيانه

كان الخواجه لوقا طمعون المذكور آنفاً تاجراً صغيراً في صيداء يرتزق من معاملة كبار التجار ·
ولكن لم تمضِ عليه عدة سنوات حتى انتقل الى بيروت لان صيداء سافية لا تحمل سفينة كبيرة ·
فوسع اشغاله في بيروت ما شاء التوسيع ولكن دولاب حظه كان واقفاً في تجارته مع ذكائه
ومهارته · ولولا اعتماده على اهل له في بيروت لما قامت له قائمة ولا قدر على ان يعمل شيئاً ·
فلما سمع بمجيء المستر كلدن الغني الاميركي المشهور الذي يملك الملايين وعزمه على اقامة وكيل
له في الشرق للاعتماد عليه في تجارته الاميركية صادراً وواردا علم انه اذا نال هذه الوكالة
كانت له غنيمة عظيمة · فلم يذخر وسعاً في ذلك ولا ترك واسطة الا استعملها · ولكن لما قدم
كلدن الى بيروت لم يستطع لوقا مقابلته لان لادي كلدن ابت استقبال احد في بيروت كما
تقدم وسافرت منها في الحال · فعلم الخواجه لوقا ان صاحبه مسافر الى الحدث فركب مركبة
من بيروت قاصداً البترون ومنها امتطى فرساً الى الحدث · فلما وصل اليها قيل له ان الاميركي
سافر الى الارز فتبعه على الاثر .

وكان الخواجه لوقا كهلاً في نحو الاربعين من العمر وهو بدن ذو جسم قوي ولسان طلق ·
وكان جريئاً مع الضعفاء ولكنه ضعيف مع الاقوياء شأن اهل السياسة الجبناء · الا انه مع
ضعفه مع الاقوياء كان قادراً على مقابلة رجل كالمستر كلدن واستمالته وارضائه

وكان وصوله الى الارز قبل بزوغ الشمس وكان كليم وسليم وامين جالسين عندئذ على اكمة صغيرة مشرفة على الطريق خارج الارز

فلما ظهر الخواجه لوقا في الطريق ارتجف امين وقال لكليم : لا حول ولا قوة الا بالله ان هذا الرجل الذي قطع حبل حياتي يتبعني اينما ذهبت

وكان مخلوف المجنون قادماً من الارز في هذه الساعة نحو الرفاق الثلاثة . فلما وصل اليهم كان الخواجه لوقا قد صار على مقربة منهم

فالتفت مخلوف الى القادم وهو ينشد حسب عادته

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ولكن ما وقع نظره على القادم حتى جمد في مكانه كانه صنم اصم . ولولا تقليبه عينيه في الرجل القادم لظن رفاقه انه فارق الحياة وهو قائم على قدميه

و بعد هذا الجمود برهة أسرع مخلوف وعينه تستطير شرراً فنزل عن الاكمة ووقف على الطريق . فلما وصل اليه الراكب صاح مخلوف صيحة كعواء الكلاب والذئاب . وقال « هذا هو » ثم اطبق على لوقا فاخذ به وشدّه فالقاه عن جواده على الارض كالجذع الممدود وبرك فوقه

فهجم حينئذ المكاري وسليم وكليم ليرجعوه عنه فكان مخلوف يصيح كالوحوش والزبد على شدقه « لا يرجعني عنه احد غير الله ... قد اهلكني ... قد حرمني حياتي ... لولاه لما فرّت حبيبتي ... الانتقام ... الانتقام»

وكان عند كل كلمة من كلامه يضرب لوقا بقبضته ضرباً شديداً وهو كالجمل الهائج وناهيك بغضب المجانين . فاسرع الناس من جهات الارز على صوته عشرات ومئات مئات فتكاثروا عليه وانهضوه عن خصمه بعد جهد شديد . فانقلب مخلوف من الغضب على خصمه الى الغضب على نفسه وهو في اشدّ حالات الجنون . فتناول حجراً وصار يضرب به نفسه و يلقي نفسه على الارض و يقوم وهو يهذي بهذا الكلام « مسكتك يا ظالم ... دعوني معه لاحاسبه ... مضت سنوات وانا افتش عليه ... هل يموت حق حبيبتي ... ابعدوا والاّ قتلتكم كلكم ... اليوم يوم الثار ... يا الهي ارسل الآن صواعقك اذا كنت عادلاً ... صاعقة واحدة فقط .. تقتلني وتقتله »

وكأنّ الله اجابه الى طلبه في هذه الساعة . فان الناس الذين كانوا يمنعون عنه فريسته تركوها واجفلوا راجعين القهقرى اجفال العصافير حين ظهور الباشق . ذلك انهم شهدوا امامهم مشهداً مريعاً . فان وحشاً بشرياً هائل المنظر كان قادماً نحوهم وفي يده بندقية

فالتفت سليم وكليم وصاحا : هذا صاحبنا . ما جاء به

اما مخلوف فانه لم يهمه شيء من كل ذلك . بل انه لما راى الجموع قد فرت من وجهه وتركت الخواجا لوقا وحده مشغولاً باصلاح ملابسه هجم عليه كالذئب واخذ بخناقه

فحينئذ خرج من فم الوحش البشري القادم وفي يده بندقيته صوت اجش سمعه القارىء قبل الآن في راس القضيب وهو صراخه « الوحش الوحش الوحش » ـ ثم انه سدد بندقيته نحو مخلوف ليطلقها عليه

فعلم سليم وكليم ان صاحبهما ملك راس القضيب سيقتل مخلوف ولوقا معاً اذا لم يدخلا بينهم لاعتباره ان مخلوف ظالم معتدٍ كما كان يقتل الحيوانات التي تعتدي على رفاقها . فدخل سليم وكليم حينئذ بين الفريقين ووار يا مخلوف ولوقا وراءهما وصاح كليم . ياعمّ دعه فنحن نؤدبه ونأتيك به

وكان مخلوف وخصمه يتصارعان حينئذ بقوة هائلة والناس لا يجسرون على الدنو منهما للدخول بينهما . ولكن حانت من مخلوف التفاتة فابصر ذلك الوحش البشري ينظر اليه وبندقيته مسددة نحوه . فانتبهت فيه عاطفة الحرص على البقاء . فترك خصمه وخطا خطوتين نحو الشيخ الهائل غضوباً فتبعه سليم وكليم لئلا يقتله الشيخ

ولكن ما تقدم مخلوف بضعة امتار حتى وقف مدهوشاً هذه المرة ايضاً وصرخ صرخة دوت لها الجبال . ثم هجم على الشيخ صائحاً « متى حاروم حنا حاروم ... جئتَ في وقتك ... وفي يدك بندقيتك ... انظر صاحبك لوقا طمعون ... »

فلما سمع الشيخ الهائل اسم (لوقا طمعون) ظهرت الرعدة في جسمه وجحظت عيناه واصطكت ركبتاه . فهجم كالذئب نحو لوقا . واذ عرفه زمجر كالاسد صائحاً « يالعيني اميليا .. حقاً لقد انتهى » ... ثم سدد البندقية نحو لوقا واطلق نارها عليه

فصاح سليم وكليم وهجما نحوه ولكن من حسن الحظ لم ينطلق الرصاص لان الضباب كان قد رطب بيت البارود

فحينئذ القى الشيخ بندقيته وهجم على لوقا طمعون فتبعه مخلوف هاجماً لهجومه

فكل من راى ذئاباً تهجم واسوداً تثب وضباعاً تغضب يمكنه ان يتصور هجوم هذين التعيسين على ذلك التعيس

فصاح كليم وسليم بالجموع التي كانت تنظر اليهم من بعيد . الينا يا شباب وساعدونا فهذا وقت المروءة . فهجم الناس لمساعدتهما ولكنهم لم يستطيعوا الفصل بين المجنونين وفريستهما

الا بجهد شديد · فذهب لوقا طمعون نحو خيام المستر كلدن والدماء تسيل من وجهه والجماهير تتبعه ليغسل جروحه · اما مخلوف والشيخ فقد ادركتهما نوبة الجنون حنقاً لعجزهما عن خنق الخصم فسقطا على الارض مصروعين بلا حراك · فقيدهما سليم وكايم لئلا يضرا نفسيهما ثم نقلاهما الى الغرفة المقابلة للكنيسة واقفلا الباب

هذه هي الحادثة التي كانت سبباً في الجلبة التي سمعها المستر كلدن بينما كان يحادث امرأته

الفصل الخامس عشر

ذئب لدى لبوة

موقف حرج

فهنا وا اسفاه لم تبقَ حاجة الى شرح الحادثة التي تقدمت لان القارىء اللبيب فهم كل تفاصيلها وروابطها واسبابها · وعرف مبلغ تعاسة اميليا

وما استقرَّ المستر كرنيجي برهة في الخيمة مع المستر كلدن وزوجته حين دخوله عليهما كما تقدم حتى دخل الترجمان يقول ان رجلاً يُدعى الخواجه لوقا طمعون قد حضر من بيروت للسلام على حضرة السر · فعاد الاضطراب حينئذ الى اميليا ونهضت لتخرج الى خيمتها · فاوماء اليها المستر كلدن ان تبقى لتلتذ بمشاهدة خصمها تحت قدميها · ثم همس بضع كلمات في اذن سكرتيره ليطلعه على طرف من المسالة · و بعد ذلك قال للترجمان قل للرجل ان يدخل

فدخل لوقا طمعون باشاً ضاحكاً كانه لم يُصب بمكروه · فحيا اجمل تحية · فجاوبه المستر كرنيجي · اما المستر كلدن فقد كان يتشاغل بتقليب الاوراق على المائدة واما اميليا فقد ادارت ظهرها للباب وانحرفت نحو الظل وهي ترتجف من الغضب والحقد

فساء لوقا هذا الاستقبال البارد فجلس منقبضاً · وبعد ان دام السكوت دقيقة قال المستر كلدن بنزق وهو ينظر في الاوراق لا في وجه ضيفه : ماذا تريد حضرتك · فاجاب لوقا · لقد كتبت لجناب السر اعرض عليه خدمتي في كل ما يريده في الشرق اذ بلغني انه يطلب وكيلاً · فقال كلدن · وكيف تريد ان اتخذك وكيلاً من غير ان اعرف امانتك واستقامتك

فانجرح هنا لوقا في صميم شرفه التجاري والادبي فصعد الدم الى رأسه واجاب : لقد

قدمت لحضرتك الشهادات الكافية وفي جملتها شهادة رئيس ديني كبير

فقهقه حينئذ كلدن بصوت عالٍ وقال : شهادات ؟ هل تريد ان اجعل احد خدامي يجلب مثل هذه الشهادات بعشرة ريالات فقط · ثم التفت الى اميليا وقال : ما قولك مسز هل نُقبل منه هذه الشهادات

فلم تجاوب اميليا لانها كانت غير قادرة على الكلام · اما لوقا فعدل حينئذ عن مطلبه فقال بشيءٍ من عزة النفس : عفوًا يا مسز · انا سالت حضرتكم سؤالاً فاذا قبلتموه شكرتكم واذا رفضتموه عدتُ من حيث اتيت مسرورًا باني تشرفت بمعرفتكم

فحينئذ دبت الحماسة في صدر اميليا لانها شعرت بان الخصم لا تزال له قوته التي سحقتها في ما مضى · فعزمت على سحق هذه القوة للانتقام منها · فجمعت قواها كلها وقالت

— ان طلب المستر كلدن حق اذ بلغته اعمالك في صيداء

فقال لوقا في نفسه الآن علمتُ سرَّ المسألة فان اعدائي ومزاحميَّ سعوا بي لدى هؤلاء الكرام ولذلك اساءوا استقبالي · ثم اجاب مبغوتًا ومظهرًا الدهشة · عفوًا ياسيدتي الكريمة اية اعمال تعنين · ان جميع اهل صيداء يشهدون لي بحسن السيرة والسريرة والشرف · واذا تفضلتِ واطلعتِ خادمك الامين على الاقوال التي بلغتكم من حسادي واعدائي فانني انقضها كلها قولاً قولاً

فاجاب المستر كلدن حينئذ بحدة : انا لا احب كثرة الكلام يا مستر لوقا · فاذ شئتَ ان تكون وكيلاً لاشغالنا فجئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجا متى حاروم في صيداء

فلو ان الصاعقة وقعت تحت قدمي لوقا لما اثرت فيه تاثير هذا الكلام · فنهض بحدة وصاح · لا تصدق ياسيدي لا تصدق كل ما سمعته · فان هذا الرجل جاهل سيء التدبير مخرب نفسه و · · · ·

فهنا لم تعد اميليا تستطيع السكوت فقطعت كلامه وصاحت بحدة رغمًا عنها · لاتهن الناس ياخواجه بل اجب اتاتي بالشهادة المطلوبة ام لا

فقال لوقا في نفسه حينئذ · انني اذا ذكرت لهم ان متى حاروم موجود الآن في الارز بحالة الجنون والهول وقد كاد يفتك بي فتلك اقبح شهادة · فانهم يسألونه ويعلمون منه ما يريدون علمه · فاجاب · ان متى حاروم ياسيدتي لم يوقف له على اثر منذ عشر سنوات فقالت اميليا والدموع ملء عينيها · ومنزله · فقال قد بيع · قالت واهله · قال كان له زوجة

فتوفيت وابنة طائشة فرّت وتركته

فحينئذ وثبت اميليا كمن لسعته افعى في صميم قلبه وصاحت باعلى صوتها : يا ظالم تخرب بيته وتميت زوجته وتهرّب ابنته وتبيع منزله وتمحو اثره ثم لا تكتفي بكل ذلك بل لا تزال تطارده بحقدك و بغضك فتهينه وتهين ابنته امامنا الآن .

فغضب لوقا عند هذا الكلام وقال : الوداع يا سادتي . وهمّ بالخروج . فوثب اليه كلدن وثبة الاسد فاخذ بذراعه وقال بحدة . مستر لوقا قبل ان تخرج من هنا اجث واطلب الصفح من مسز كلدن ابنة الخواجه متى حاروم

وان القلم ليعجز عن وصف ماجرى حينئذ و كيف استقبل لوقا هذه الصاعقة التي انقضت على راسه ولكن لما انقضت دهشة لوقا وعلم خطارة موقفه وهوله جمع قواه و كبرياءه التي كانت قد فارقته . و بعد السكوت برهة قال . الآن فهمت ياسيدتي سبب ماجرى . فصار يجب عليّ تبرئة نفسي لا للحصول على وكالة اشغال بل حفظاً لكرامتي لديك . فكل ما بلغك عني يا سيدتي كان معكوساً او مبالغا فيه . اذ اي عمل عملته في معاملتي ابيك ولا يعمله كل الناس اليوم . والمستر كلدن زوجك المحترم لا يستطيع تكذيب كلامي . اسأليه اذا شئتِ كيف جمع ثروته الطائلة وملايينه العديدة . اما افلست بنوك خصومه وقامت بنوكه . اما امتصت سككه الحديدية ثروة سكك اعدائه . اما خربت في الاحتكارات التي احتكرها الوف من المحلات وافلس في مضاربته الوف من المضاربين . فما الحيلة اذا كانت هذه طبيعة التجارة نفسها . وكيف نستطيع جمع الثروة لننفع بها الناس اذا كنا نحذر من ضرر هذا ونخاف مزاحمة ذاك . فهذه سنة العالم وقد قال جوت « الى الامام الى الامام ولو فوق الجثث »

فدهش المستر كلدن لثبات جأش الرجل بعد تضعضعه وللطريقة التي حوّل بها الموضوع عن محوره . اما اميليا فقد خلعت عن نفسها لدى هذا الكلام ثوب الحاضر وارتدت بثوب الماضي واجابت بحدة

ــ كل هذا الكلام يا سيدي لا يبرىء السرقة والاحتيال والدسائس والسلب والنهب . نقول التجارة والاصول التجارية ولكن اي تاجر شريف يزعم ان اله التجارة يطلب دائماً ضحايا بشرية ودماء بشرية . اي تاجر خال من عواطف الشرف والانسانية يرضى بان يجمع ثروة من طعام الاطفال ودموع البنات وموتِ الاولاد وخراب البيوت . اذا وجد في العالم هذا التاجر فلا اسميه تاجراً بل لصاً وقاطع طريق . بل هو ادنى من اللصوص لان اللصوص يهاجمون الانسان من وجهه اما هو فانه يغدر به لانه يباغته من وراء و يغمد خنجره في ظهره .

كلا يا سيدي ليست التجارة هي التي دفعتك الى صنع ما صنعت بل طمعك ورغبتك في الثروة باية طريق كانت . وانا الآن لست آسفة على ما ضاع من الاموال والارزاق لان الله عوضني خيراً منها وانما اسفي على شيء واحد لا يعوض وهو فقد ابي

وهنا ترقرق الدمع في عيني اميليا . فتأثر لوقا لهذه الدموع وهذا الكلام وان كان فيه اهانة له لانه رآه ممزوجاً بشيء من اللطف . لاسيما وانه كان ينتظر اشد منه ففكر قليلاً ثم قال باسماً : سيدتي انني اعرف مكان ابيك . وساجيئك منه بالشهادة المطلوبة

فرفعت اميليا حينئذ يديها وعينيها الى السماء وصاحت بجنون « ماذا تقول » فقال الرجل نعم انني اعرف مكان ابيك . فنهض حينئذ المستر كلدن مدهوشاً وصاحت اميليا « اين اين قل فاملاء فاك دراً . رده الي فانسى كل اساءاتك . وا ابتاه واابتاه . اصحيح ما تقول . . قل قل مالك لا تتكلم . متى نظرته ؟ » فاجاب لوقا (اليوم) فصاحت اميليا « اليوم ؟ واين ذلك اين » فقال لوقا هنا في الارز

الفصل السادس عشر

﴿ صوت الابنة الكريمة ﴾

يحيي العظام الرميمة

فحينئذ ذهلت اميليا عن نفسها وعن زوجها وعن مقامها ووثبت خارج الخيمة كالبرق الخاطف وهي تصيح « اين اين »

فتبعها المستر كلدن وسكرتيره ولوقا . وحينئذ عرف المستر كلدن من لوقا تفصيل ما جرى فرام كلدن تسكين جأش زوجته واقناعها بالانتظار الى ان يصلحوا ملابس الشيخ ويحسنوا حالته وينقلوه من تلك الغرفة . اما اميليا فلم تصغ لاحد بل مرقت كالسهم قاصدة الغرفة فلم يكن لوقا ولا كلدن يعرفان وا اسفاه انه كان مجنونا

* * * * * * * *

فلما وصلت اميليا الى باب الغرفة دفعته وهي ترتجف ودخلت فابصرت على الارض شخصين مقيدين راقدين ـ والحقيقة انهما كانا في نوبة الصرع كما تقدم

فصرخت اميليا صرخة الجنون واليأس حين وقع نظرها على ابيها بتلك الحالة ورجعت

القهقرى خوفاً . ولكنها كالبرق عادت اليه واكبت عليه

وكان الناس قد اجتمعوا في الخارج فنادى كرنيجي اثنين منهم وحملها مخلوف فنقلاه الى الكنيسة فبقيت اميليا مع ابيها

فانحنت الابنة حينئذ تقبل قدميه ويديه . وكانت تبكي وتناديه بصوتها اللطيف «ابتاه ابتاه . انتبه فقد جاءت اميليا .. ابتاه . افتح عينيك وانظر اليَّ .. لقد جئتك بحفيدتين معي . قم وانظر اليهما فانهما تذكرّانك اميليا صغيرة .. ابي هل غضبتَ عليَّ ولعنتني لما تركتك . هل خطر في بالك انني فررتُ من خدمتك .. قم واخبرني انك لم تسيء الظن فيَّ .. ان ضرباً من الجنون استولى علي ودفعني الى السفر .. فلعل الله هو الذي اراد ذلك لاعود اليك بالخير والغنيمة والظفر .. ابي مالك لا تجيبني .. ما هذا الرباط الذي في يديك ورجليك .. ما هذا الجلد الخشن الذي يستر جسمك مع انه كان يلبس الملابس الناعمة . ما هذا الشعر الهائل الذي يغطي جبينك الذي كان صافياً هادئاً . وما هذه الشقوق التي في قدميك .. آه لقد تعذبتَ في شيخوختك كما تعذبتُ في صباي . ولكننا استرحنا الآن . فقم وعانقني . ابتاه ابتاه مالك لا تجيب . »

فيا لتأثير الحنان البنوي . يا لفعل القلب في القلب . يا للعدالة الابدية التي لا تسمح بموت « الحق » في العالم

فان الشيخ الهائل لم يلبث ان تحرك لذلك الصوت الملائكي اللطيف وانتفض وفتح عينيه . فجمدت اميليا في مكانها جمود الصنم . فادار الشيخ نظره في المكان متحيراً كأنَّ على عينيه غشاوة . ثم صاح ماذا تريدون . فغصت اميليا بدمعها واجابت . « ابي . هل انتبهت . » فبهت الرجل وقال متحيراً من انتِ . فقالت « انا اميليا اميليا »

فحينئذ جلس الشيخ متثاقلاً وصاح غاصاً بدموعه . اميليــا متى جئتِ يا حبيبتي . — فانطرحت الفتاة بين ذراعيه وصارا يبكيان بكاء اللقاء بعد طول الفراق

ولم يدوّن علم الطب قط في تاريخه حادثة شفاء من الجنون كهذه الحادثة الغريبة . وكل من سمع بها رجح ان الشفاء كان من فراغ جنون الشيخ في تهيجه الاخير على لوقا وان كان لصوت ابنته دخل في ذلك ايضاً

واذ سألت اميليا اباها عن حالته وسبب وجوده هناك ولبسه تلك الملابس وجدته اشد منها عجباً ودهشة من ذلك . لانه بعد رجوع عقله اليه نسي كل ما كان

* * * * * * * *

وبعد ساعة ونصف حضر « مزين » من بشري فاصلح شعر الخواجا متى والبس ملابس نظيفة ونُقل الى صدر خيمة اميليا . وكان الناس في الخارج قد ضجروا وهم ينتظرون « يوم كلدن » فلما بلغ ضجرهم الى المستر كلدن قال لاميليا باسماً « لا انا ولا انتِ بل ان اباكِ هو الذي سيعمل يوم كلدن »

فجيء بكيس كبير فيه ريالات بقيمة الف جنيه فحمل مفتوحاً على حمار وسار وراءه الخواجا متى بملابسه النظيفة المرتبة وشعره المصقول وصار يفرق في الجماهير الحاضرة ريالاً ريالاً لكل واحد من الاولاد وريالين ريالين لغيرهم . وكانت الجماهير تزحمه من كل جانب

فلما ابصر سليم وكليم صاحبهما « ملك راس القضيب » بتلك الحالة الجديدة اعتراهما العجب الشديد . فكانا يدنوان منه ويتأملان فيه . اما هو فلم يعرفهما . ولم تفارقهما الدهشة حتى اطلعهما الترجمان على تفصيل الحادثة

* * * * * * * *

وفي المساء عزم كلدن وزوجته على السفر من الارز للرجوع الى اميركا بعد وجودهما ضالتهما المنشودة . فقوضا الخيام وعزما على الركوب . وكان لوقا طمعون قد انفرد عنهما بعد الحادثة ولم يلتقِ بمتى . فقبل السفر قصد اميليا وسألها ضاحكاً اتسمح له الآن بوكالة الاشغال التي طلبها . وكان كلدن حاضراً فاجابه هذه المسألة صارت متوقفة على رضى الخواجا متى

واذ قُصت هذه القصة على الخواجا متى وطُلب رأيه فيها ضحك اولاً ثم اطرق مفكراً وبعد ذلك قال « رأيي ان الصفح اولى . فان الوحش الذي في الانسان لا تذلله المقاومة والعناد بل الحلم والصفح . ولذلك يكون الاقل حيوانية والاكبر عقلاً اكثر صفحاً وحلماً »

فلو سمع سليم وكليم هذا الجواب لقالا ان فلسفة صاحبنا في « الوحشية » وهو مجنون مخالفة من حسن الحظ لفلسفته فيها وهو عاقل

* * * * * * * *

وقبل السفر استدعى كلدن سكرتيره وقال له وهو يطوف معه بين اشجار الارز : مستر كرنيجي اما تعلمت شيئاً من هذه الحادثة . فاجاب كرنيجي : تعلمت وجوب الرحمة يا سر للضعفاء الذين يسقطون في جهاد الحياة . والا لم يكن هنالك فرق بين البشر وبين الحيوانات . فقال صدقت ياصديقي . اذاً خصص في كل عام مليون فرنك لمساعدة العيال التي تسقط . واكتب لمحلنا يقرض مليون دولار لمحل خصمنا « ارميس » الذي افلس من مزاحمتنا ومليوناً آخر لمحل « ودن » الذي خسر ثروته في احتكاراتنا . فانني بعد الآن صرت ارى ان البشر لا يكونون

بشراً اذا كانوا يصرفون كل ما اعطاهم الله من النباهة والعقل والقوة في مجاهدة بعضهم بعضاً ليستأثر اقويائهم بالمنافع والخيرات دون الضعفاء ويدوسونهم كما يدوسون الحيوانات الدنيئة»(١)

* * * * * * * *

وفي المساء ركب الجميع مسرورين قاصدين بيروت عن طريق بعلبك وكان سليم وكليم وامين جالسين على اكمة ينتظرونهم فلما مروا بهم وشاهد امين خصمه لوقا يحادث متى ويضاحكه واميليا تنظر اليهما وتبتسم مسرورة لتقلب الزمان صار امين يبكي ويقول: اين العدالة في العالم · فتنهد سليم واجابه: العدالة يا صاح موجودة ولكن المهمّ الجدّ والانتظار والثبات · الم تنظر كيف انتصرت اميليا ولوقا بهذه الصفات · فلا تجدف على النواميس الابدية فانه ليس بالامكان ابدع مما كان · وكل ظلامة مهما كانت عظيمة تُكشف عن صاحبها اذا تسلح بهذه الفضائل · فان الله اعدل من ان يخذل الحق · وهو لنصرته لا يطلب من البشر غير الصبر والجد والانتظار

فقال امين متأوهاً: وما الحيلة بمن لا يستطيع الانتظار لان ايامه معدودة

فاجابه سليم · هذا وهمٌ يا صاح وعلى افتراض صحته فان المظلوم يكون اقرب الى الله في الآخرة مما لو انصفه الله هنا

فهزّ امين راسه وقال، كلام حلو للتعزية، كلام حلو للتعزية

الفصل السابع عشر

حب المجانين

لوقا يأكل الحصرم ومخلوف يضرس

وكانت الاكمة التي جلس عليها الرفاق الثلاثة قريبة من الكنيسة · واذا هم يسمعون حينئذ صراخاً عظيماً فيها ففطنوا حينئذ الى مخلوف الذي سجن فيها فنهض سليم ليراه · ولكنه لم يخطُ خطوتين حتى كان مخلوف قد كسر الباب وخرج منها وعينه تستطير شرراً · فلما رأى سليم صاح به اين متى، حاروم · ولوقا طمعون · فاجابه سليم قد رحلا · فوثب حينئذ مخلوف راكضاً الى الطريق ليتبعهما واذا به يرى الدواب والاحمال امامه لانها لم تكن قد بعدت

(١) من هنا تعلَّم كرنيجي توزيع امواله بعد ان اثرى ثراءً عظيماً كسيده كلدن

بعد . فاطلق ساقيه للريح وراءها . فثار سليم وكليم وراءه ايضاً . فوصل مخلوف الى المسافرين وصار يقلب نظره فيهم ، فلما وقع نظره على اميليا صاح صيحة دوت لها الجبال وانطرح على الارض صارخاً : لقد صدق سليم . عادت اميليا

فضحك كلدن وقال لم تخلص من الاسرار بعد . فاخبره حينئذ متى انه شاب مجنون انقذ في زمانه حياة اميليا . فمد كلدن يده الى جيبه واخرج منها ورقة بخمسمائة دولار واوماء بها الى مخلوف قائلاً . خذ هذا تذكاراً من اميليا . فصاح به ومن انت . فقال كلدن ضاحكاً انا زوجها

فيا ليتك يا مستر كلدن لم تلفظ هذه الكلمة . فان مخلوف ازدوج حينئذ جنونه فصار يضرب الارض بيديه ورجليه وراسه و يصيح «زوجها ، زوجها ، وانا اذاً من انا ، من اذنك ان تتزوجها ، كيف تسلبني حقي ومالي ، عاما متى حاروم ، ما شاء الله ماشاء الله ، ثياب جديدة وشعر مقصوص ، وراكب على بغل ، قه قه قه ، بغل على بغل ، لو لم تكن بغلاً لما زوجت ابنتك هذا البغل وتركت رجلاً مثلي ، ولكن اظنكم تضحكون ، اميليا اميليا انسيتِ يعقوب»

فقال كلدن حينئذ لزوجته مسز سوقي جوادك الى الامام واتركينا

فوثب حينئذ مخلوف وثبة الذئب وصاح « بل انت تتركها » ثم مدَّ يده الى جيبه واخرج منها سكيناً وهجم على كلدن

فلم يكن كلمح البصر حتى اطبق عليه كليم وسليم من وراء وقبضا على يده فاسرع البغالون وشدوا وثاقه بحبل غليظ . فانكسرت حدة مخلوف حينئذ فصار ينوح و يصيح متذللاً باكياً (اميليا ، اميليا ، بحياتك لا تتركيني ، ماذا صنعت لك حتى تعذبيني ، اما انقذتك من الموت . هل انقذتك لغيري ، اما احببتك عشر سنوات دون ان انساك ، اميليا اميليا ، يقولون انه زوجك ، فلا باس ، هو زوجك ، خذيني انا خادماً لك ، انني اتبعك ماشياً لا راكباً ، لا اكلمك ولا ادنو منك وانما احرسك واخدمك واقبل قدمك . اميليا اميليا انظري انا صديقك تعيس الآن ولوقا طمعون عدوك سعيد . يا لنكران الجميل . يا للظلم . هو يركب بجانبك مسروراً وانا يشدونني بالحبال و يعذبونني . اميليا اميليا خذيني معك . لا تقتلي نفساً بريئة فان الله يحاسبك)

فاثرت هذه الكلمات في نفس اميليا حتى بكت لها شفقة على ذلك التعيس فخاطبت زوجها مستاذنة في امر ثم وجهت جوادها نحو مخلوف فدنت منه وهو مشدود الوثاق . فكأنَّ روحه عادت اليه . فمدت يدها البيضاء اللطيفة ووضعتها على كتفه وقالت له بنغمتها الساحرة : عزيزي مستر يعقوب . فصاح مخلوف : بلا مستر بلا مستر بحياتك قولي عزيزي يعقوب

كما كنت تقولين . فقالت عزيزي يعقوب لا اقدر على اخذك الآن معي . ولكن اعدك انني ساطلبك . فصاح مخلوف . متى يكون ذلك . فقالت حين وصولي الى بلادي . فبكي مخلوف وصاح بلادك ولكن بلادك هنا . فقالت بل بلادي اميركا يا عزيزي مستر يعقوب . فعش هذه المدة مسرورًا راضيًا بغيابي لانني ساتذكرك دائمًا وارسل اليك كل ما تحب الى ان يتيسر لي استدعاءك »

وهكذا هداء ذلك المجنون العاشق التعيس بشيء من اللطف والوعود . ولكن هدوءه كان وقتيًا فانه ما تحرك الركب وسار حتى اشتد به الجنون وشرست اخلاقه فاضطروا الى شد وثاقه وارسلوه الى دير قزحيا ولا يزال في الدير الى اليوم ينشد الاشعار و يترنم بذكر حبيبته اميليا

فسكين انت يا مخلوف . تخاصم البحر والريح فكان الصالح عليك . ولكن اما سمعت ما قال سليم . ان العبرة بالانتظار والثبات . وانت لم تقدر على الانتظار لان عقلك رحل عند اول صعوبة . على انك لو انتظرت وكنت الآن عاقلاً فربما كنت نلت الآن اسمى منزلة عند اميليا بعد منزلة زوجها

* * * * * * *

اما سليم وكليم فقد اقاما في الارز بضعة ايام وكان تخلصهما من مكار بعها بطرس الثقيل بواسطة امين الذي عاد على بغله الى الحدث . وحين عودتهما من الارز ممتلئين صحة وقوة كان سليم يقول لكليم كلما مرّا بالاديره : اما اقتنعت الآن بعد ما رأيناه من تقلبات حوادث الحياة وقصصها المضحكة والمبكية انه خير للانسان الذي يريد الراحة ان يعيش منفردًا عن العالم في دير او في نفق

فتنهد كليم وقال ليس الانفراد عن الناس هو الذي يريح الانسان . فان مخلوف منفرد الآن عنهم في دير ولكنه تعيس جدًا . فراحة الانسان وسعادته في داخله اي في نفسه . فلا يبحث عنهما خارجًا عنها . والنفوس القوية العادلة المستقيمة تقدر ان تكون مستريحة سعيدة حتى في وسط تقلبات الحياة

تمت